

خالد محمد خالد

إِنَّهُ الْإِنْسَانُ

« أَتَمُّنُ مِنَ الْمَعْرِفَةِ »
« التَّصَمُّيمُ عَلَى أَنْ نَعْرِفَ »

ملئزم الطبع والنشر دار الكتب الجديدة
لصاحبها توفيق عفيفي عاصر
شارع الجمهورية بالقاهرة

مطابع دار الكتاب العربي بالقاهرة



جميع الحقوق محفوظة للمؤلف



الإهداء

إلى الناسِ كافةً . . .

في هذا الكتاب

سورة			
٥	.	.	الفصل الأول : الإنسان عبّر نفسه
٤٣	.	.	الفصل الثاني : الإنسان مادة حضارته
٨٣	.	.	الفصل الثالث : الإنسان سيد فكره
١٣٩	.	.	الفصل الرابع : التحديد ، والاختيار
١٥٩	.	.	وبعد :

مقدمة

في صُحبة تماؤل عظيم بمستقبل الإنسان ، كتبت هذا الكتاب ..
وفي رحمة هذا التفاؤل ، أعين -- دوماً -- وأحيا
وساحبكم من الذين يربطهم بالإنسان ولائاً غير مجذوذ ،
ولا حدود ..
وكل ما في الناس من ضعف ، لا يدرفني عن رؤية الإنسان
السكمن داخل ذواتهم ، وصفوفهم .. والكادح إلى الكمال كدحاً
فملافيه .. ا
تعيح أني -- أحياناً -- أبتأس بما يفاون ، وبما أفعل ، ويتراءى
لي مشهد الفياسوف الأغرقي « ديوجينز » حين صاح من فوق هضبة
عالية : « أيا الناس » .. فلما سارعوا إليه هز رأسه أسفاً ، وقال :
« لم أنادكم .. إنما أنادي الناس » .. ا ا
لكن الإنسان لا يابث أن يظهر ، متربما على عرشه القويم فوق
كل هذه القوضي .. حاملاً مشعله المضيء وسط كل هذا الظلام ؛
فتذهب من فورها تلك الحشرات السكاذبة . وتمطير غواشي الكتابة
والياس أمام عظمة السامقة ..

— ٢ —

وهذا الكتاب ليس قسيمة تمسكي أجناد الإنسان وتردد
مفاخره .

إنما هو محاولة في سبيل كشفه واجتلائه
ذلك أن الكثير من مشاكل البشرية ، مرده تقطع الأسباب
بينها وبين الإنسان . ، وعودها عن العمل الدائب البار من أجل
اكتشافه ، واكتشاف مشيئته

لطالما أقامت البشرية جسورها فوق هاوية ..

ولطالما أسلمت أمورها للبغضاء ، وللحفظ والناشيات .
وكثيراً ما كانت — ولا تزال — تبدو كجيش زاحف تاه عن فائده ،
وحيل بينه وبين معرفة خطته المثلّي ، واتجاهه السديد . ، فتجهد ،
وتشتت ، واحتواه الضياع

ولكن لحسن الحظ ، أنها أدركت أخيراً ، أنها لكي تفسح
أقدامها الراسخة فوق صراط قويم .. ولكي تكشف حقائق حياتها
في زمن وجيز ، وبجهد يسير .. ولكي تظفر بكل أغراض وجودها
المظيم . ؛ فلا بد لها أن تعود بتفكيرها جيمه إلى الإنسان ..

ولقد فعلت .. وكأَيِّ من رائد ، وفياسوف ؛ ومُعتمٍ أبي في هذه
السبيل أطيب البلاء ..

بيد أن الجهود التي يتطلبها هذا العمل الجليل ، لا تزال تدلّ

— ٣ —

المزيد . ومن ثمّ ، فتبعات الذين يستطيعون الإسهام والمشاركة ،
تناديهم وتهيب بهم كي ينهضوا ، ويتقدموا ..

وهذا الكتاب ، جهد متواضع ، يتقدم على استحياء ليأخذ مكانه
بين الجهود الكبار ، العاملة من أجل اكتشاف الإنسان .. اكتشاف
حقيقته .. واكتشاف مشيئته .. واكتشاف القرص الواجب
توفرها له كي يبلغ كماله الميسور ، ويدرك مجده القادم ..

وهو ، أعنى الكتاب ، يتبع الإنسان — عبّر نفسه — ،
و — خلال حضارته — ، ويبصره في — آفاق فكره — ، وفي
— اختياره وحرّيته — ..

ولم أسأل نفسي قبل البدء في المحاولة ، إن كانت الظروف مُهيأة
بحيث أزاؤها على النحو الذي أريد ، أم لا .. إذ كان حسبي أن ألبّي
نداء تبعات فكرية أمينة ، وأقول كلمات أحسبها لازمة ، ومُجدية ..

لقد سُئل « كونفشيوس » من أحد تلامذته هذا السؤال :
— كيف أودى واجبي تجاه الأرواح .. ؟ ؟
فأجابهُ « كونفشيوس » :

— ٤ —

— عند ما تتعلم كيف تؤديه تجاه الأحياء .. !!
وهكذا نحن .. لن نستطيع أداء واجباتنا تجاه كل شيء ، حتى
نؤدى .. أولاً - واجبتنا تجاه الإنسان .
وعلينا أن ندرك هذا جيداً .. فعلى إدراكه يتوقف كل ما نرجو .
نحن البشر ، من تقدم وارتقاء ..
ولعلكم الآن تتساءلون : وما هذا الإنسان . ؟؟ وأين نلقاه .
وهنا أستودعكم الله ؛ مَخْلِيَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْكِتَابِ مَا
خَالَه



الإنسان عبر نفسه

لهذا خلقنا . .

ومنذ أعطينا هذه الأرض ، وهذا الوجود ، وهذه الحياة . . وثمة
من الأعماق البعيدة نداء لا يفتأ يتردد ويهيب : أن وصلوا السير دوما .
وارفعوا مراسيكم وأبحروا إلى الغرض العظيم . .
الغرض العظيم . . ؟؟ وماذا يكون . . ؟؟

لطالما تبدى لنا في نماذج شتى . . في الأرض تارة ، وأخرى في
السماء . . خارجاً عنا مرة ، وكأنا فينا مرة أخرى . .

وفي كل هذه الاعتمالات ، كان القاق العظيم الذكي يدفع خطانا ،
وُشير فينا قوى الاستشراف إثارة عليمة واعية . .
سرنا مع القدر ، ومع الحظ ، ومع الذكاء . .
زاملنا اليأس ، وزاملنا الرجا . .

ذقنا مرارة الإخفاق ، وحلاوة الظفر . .

عشنا على السفوح ، وتذرينا القمم . .

واجهنا الفجائع ، وعانقنا المباهج ، وسرنا على الشوك خفاة ،
وعانينا الصقيع غرأة . .

وفي كل هذا وذاك . كانت راية الإقدام تخفق عالية ، عالية . . معلنة
وجود قافلة تستخدم شوقاً . وتمضرم رغبة . وتتفجر عناء ، وذكاء ،
وعزماً . . .

- ٨ -

وكان أعظم ما فينا ، وأروع خصائصنا ، الشوق . .
يا لها من كلمة ممتلئة بأسلة — هذه التي نلقبها اليوم دون أن نأق
لها بالا . . . ١١

أجل . . . كان الشوق رائدنا ، وحافظنا . . . ومن كل ظفر عظيم
يُتاح لنا تحقيقه ، كان ينبعث شوق جديد لظفر قادم ، وتَمُرُّونا غبطة
جديدة بمسئوليات تالية . .

ولكن ، إلام كان هذا الشوق العظيم . . ؟؟
لم نكن ندري ، وإن كُنَّا نُحِسُّ . . .
لم نكن نعلم ، وإن كُنَّا نَحْدِسُ . . .
حتى انبثق ذات يوم من موكبنا الصاعد عمالقة تترى . . فيهم
الأنبياء الذين يُقَلَّبون وجوههم في السماء فتلهمهم الهدى والفرقان . .
وفيهم الفلاسفة الذين يتساءلون : كيف . . ؟ ، ولماذا . . ؟
وفيهم الفنانون الذين تُزجى أناملهم الرقيقة سر الطبيعة وذكاءها .
ومنهم العلماء الذين أخرجوا خبء المجهول ، وأسراً إليهم السكون
بقوانينه . .

وتغشانا من العجب ما تغشى . .

لم يكن عجبنا ، كيف وُجد هؤلاء . . ؟ وإنما كان :
كيف وُجدوا فينا . . كيف خرجوا من بين صفوفنا .

— ٩ —

كيف خلُقوا من طينتنا ؟؟

إنهم معنا على ذات الأرض التي نمشي جميعاً في مناكبها . . . وإنهم
ليحملون مثلاً نحمل ميراث جميع الأسلاف الذين سبقونا . فكيف
تفوّقوا . . ؟ وكيف تألّقوا . . ؟ وكيف آخذوا طريقهم إلى السماء
صاعدين ؟؟

وكان هذا الحِسُّ ، نقطة انطلاق عارم . وبدأنا ندرك الغرض العظيم
الذي خلّقنا لنبلّغهُ . وعرفنا الشيء الذي يسوقنا الشوق إلى لقائه . .

ولم يكن سوى الإنسان . . . !!

ومنذ ذلك اليوم — فيما أحسب — بلغنا رُشدنا ، وبدأنا نعرف
كل شيء ، حين بدأنا نعرف أنفسنا ودورنا . .

لقد كان ميلاداً جديداً لنا — نحن البشر — حين أدركنا أن
الأرض التي نعيش فوقها ، تعمل ، ويعمل كل شيء فيها تحت زعامة
الإنسان . .

هذا الإنسان الذي هو خليفة الله . .

القابض بيديه الماهرتين على شئون عاله . .

هذا المتفوق الجسور . . بطل المآزق دوماً . . المتسلي بالأهوال أبداً . .
الذي يبصر النظام الكامن في الفوضى المائلة . . والذي يقود بصايره إلى
مشارفها العظيمة الواعدة

— ١٠ —

هذا الكائن الساس المعتد ، السيعا المركب . . الضئيل الجبار . .
صانع الحركة الداهمة لكل عقبة . . جاعل المستحيل ممكنا . . !
ولكن هل عرفناه حقا . . أم أننا لا نزال بسبيل أن نعرف . .
وماذا يا ترى وجدناه . . ؟؟؟

إن الطبائع النهائية للأشياء لم تُعرف بعد . .

والعلوم التجريبية نفسها لم تزعم لنفسها هذه المروءة على الرغم من
الأسرار الكثيرة التي أذاعتها ، والخواص التي كشفتها ، والقوانين التي
وضعت كلتا يديها عليها ، وعلى الرغم مما تتمتع به من تنبؤ ذكي وافتحام
علمي . . !

ذلك أن تلك الطبائع النهائية ، ترتبط بأزليات أمعنّت في البعد وفي
الخفاء . . ووراء ملايين المصور ، بل وراء كل تصور للزمان والمكان ،
تستقر وتكمن الطبائع الأولى للأشياء ، والتي هي أيضا الطبائع
النهائية لها . .

ولقد اكتسبت الأشياء خلال تطورها العديد صفات تفوق كل
حصْر وعدد . . بلايين القشرات تغطي حقيقتها الكامنة ، ومادتها
الأولى . . وتكتشف الأجيال المتساوقة من البشرية ، من هذه القشرات

عدداً مناسباً لذكائها ومقدرتها .. وتصحيح في زهو الانتصار : « ها .. قد بلغت القاع » .. والقاع منها بعيد جداً بعيد . !

والطبيعة النهائية للانسان مثل ذلك .. قارة عظمى ، لا تزال بجهولة ، وما أوتينا من العلم بها إلا قليلا .

ولقد ذهب علماء الدين ، وعلماء النفس ، ودلماء الحياة ، يجوسون خلال تلك القارة الغامضة ، ولا يزالون يفعلون .

أما الدين ، فقد رأى في الإنسان رأياً حصيها . .

فهو إذ لم تُتَح له الوسائل التي أُتِيحت للعلم ، فقد بانغ بالإنسان شأواً عبقرياً بعيداً .. وفي شمول لا يأبه بالتفاصيل أعان رأيه في الإنسان . فهو خليفة الله في الأرض .. وهو الجرم الصغير الذي انطوى فيه العالم الكبير .. هو مَجَلِي مشيئة الله ومظهر عظمته واقتداره . 11.

والتصور الديني حين يصل الإنسان بالله على هذا النمط الباهر ؛ إنما يُحرز تقدماً علمياً وفلسفياً . فهو يمتدح ضمناً بلانهاية الإنسان . لأن الله سبحانه لا ينتهي ...

ويجيء العلم . علم الحياة ، وعلم النفس ، وعلم وظائف الأعضاء ، فيضع الإنسان تحت مخابراته . وتفجأه أسرار والغاز لا تُؤذن بانتهاء .

يقول العالم الدكتور « الكسيس كاريل ^(١) » :

(١) كتاب « الإنسان ، ذلك المجهول » .

- « إننا لا نفهم الإنسان ككل . . ! إننا نعرفه على أنه »
« مكون من أجزاء مختلفة . وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها »
« وسائلنا . فكل واحد منا عبارة عن موكب من »
« الأشباح تسير في وسطه حقيقة مجهولة . . »
« وواقع الأمر أن جهاننا مطبق . . »
« فأغلب الأسئلة التي يلقونها على أنفسهم أولئك الذين »
« يدرسون الجنس البشري ، تظل بلا جواب . . لأن »
« هناك مناطق غير محدودة في عالمنا الباطن ، ولا تزال »
« غير معروفة . . »
« فنحن مثلاً لا نعرف حتى الآن كيف تتحد جزيئات »
« المواد الكيماوية كي تكون المركب والأعضاء . »
« المؤقتة للخلية . . »
« كيف تحدد المورثات التي تحتوى عاينها نواة البويضة »
« المخصبة ، مميزات الفرد الذي ينبثق من هذه البويضة . . »
« كيف تنتظم الخلايا في جماعات من تلقاء نفسها . . »
« ماهى طبيعة تكويننا النفسى ، والفسىولوجى . . »
« إن العلاقة بين الشمور والمخ ، لا تزال لغزاً . . »

— ١٣ —

« ولا تزال بحاجة إلى معلومات كاملة تقريباً عن »
« فسيولوجية الخلايا العصبية . »
« إننا مازلنا بعيدين جداً عن معرفة ماهية العلاقات »
« الموجودة بين الهيكل العظمي والمضلات ، والأعضاء ، »
« ووجوه النشاط العقلي والروحي . . . »
« وهناك أسئلة أخرى لا عداد لها يمكن أن تلتق في »
« موضوعات بالغة الأهمية بالنسبة لنا ، بيد أنها ستظل »
« جميعاً بلا جواب . . »
« فمن الواضح أن جميع ما حققه العلم من تقدم في دراسة »
« الإنسان ما يزال غير كاف وإن معرفتنا بأنفسنا لا تزال »
« بدائية إلى حد كبير . . . »

إن هذه الكلمات لا تعنى — طبعاً — أن العلم عاجز . . لكنها
تعنى أن الإنسان حقيقة ضخمة ، وعالم كبير ، وأنه ليس من البساطة
بحيث تكفى لادراكه تلك الجهود التي بُذلت . . بل لا بد من مواصلة
مُضنية لمحاولات فهمه ، وكشف حقيقته .

ولا بد — أيضاً — من ترويض أنفسنا على تقبل الملاحظة
الموضوعية التي تجمل الإنسان غرضها وموضوعها . والتي تعطينا نتائجها
أصدق صورة لحقيقة الإنسان .

-- ١٤ --

إن الدين ، واللم ، والفلسفة ، والفن ، والأدب . قد أبوا تيراً
بلاء صادقاً في تمهيد الحياة للإنسان وتمبيد طرائقها . . أوقواراً إن
الإنسان عن طريق هذه القوى قد وطأ أكناف الحياة لنفسه . . وعن
طريق هذه القوى قد جلي ذاته وأظهرها ، ولا يزال يجليها ويذريها .
وإن كلمة — إنسان — لتبغ من العظمة مبالغاً يجعل كل إنسانفة
لها لغواً . .

وتبلغ من الجلال مبالغاً يجعل نعتة بالسورمان فضولاً . .

« السورمان » . . وصف نخامه على لإنسان لترضى به . . وإنما
بحقيقة الإنسان ، ولنبر به عن أمنيات غريرة ، وإن ناك مايبية ،
لستقبلنا نحن البشر .

ولكن لماذا « السورمان » . . ؟ ؟

لماذا ، الإنسان الأعلى . . ؟ ؟

أولا يكفي أن يكون الإنسان ، وحسب . . ؟ ؟

وهل وجد الإنسان ، حتى تتعجل تجيء الأعلى . . ؟ ؟

في رأي أن الإنسان لم يتم بعد ظهوره . . وعمو حين يتم ظهوره ،
يجيء متضمنا كل كاله . . ويصير وصفه بالأعلى ، شبيهاً لوصفنا الشمس
بالمضيئة . . !

— ١٥ —

ثم إن هذه الكلمة « السوبرمان » تكاد نخدعنا عن حقيقة الإنسان التي يجب أن نتقبلها ونحترمها بكل ما فيها من أشواك وأزاهير .. وتكاد تسيء إلى الجهود البارة العظيمة التي بذلت ، وتُبدل من أجل ظهور الإنسان .

إن الناس الذين عاشوا في العصر الحجري ، والناس الذين سيحيون بعد عصر الكواكب والفضاء ، سواء في التمجيد والتكريم .

والإنسان في بداية تدلورنا — على الرغم من جبهته وعجزه وفوضاه . لا يقل شأواً عن الإنسان القادم في نهاية التطور مع سُمعق مكانته ومثواه ..

بل الإنسان القادم يتضمن للإنسان الزاهب وهو ابنه ، وحفيده ، وتناجه .

من أجل هذا نُولى وجوهنا في هذا الكتاب شَطْر الإنسان .. الإنسان الذي ليس أدنى ، وليس أعلى .. والذي لم يترك إلى جواره فراغاً ولا مكاناً لأي وصف مهما يكن شائناً وعظيماً .

الإنسان الذي لا يستطيع أحد أن يحتكر الحديث عنه — لارجل الدين ، ولا رجل العلم ، ولا رجل الفاسفة .. لأنه أكبر من هؤلاء جميعاً ، وأرحب آمادا ، وأفسح أبعادا من العلم ، ومن الفلسفة ..

— ١٦ —

الإنسان الذي بدأ ظهوره ولم يتم بعد . . . والذي يتجلى شيئاً فشيئاً ،
سائراً عَبْرَ نفسه ، طأوايا أعماق كيانه الأزلي أو الشبيه بالأزلي على كل
إمكانياتٍ تفوقه واكتماله .

هذا الذي يُحوّل بُؤسه إلى عظمة ، وردائله إلى فضائل ، وعجزه
إلى قوة ، وانحطاطه إلى رفعة .

هذا الذي يُفرغ أمسه في يومه . . . ويُهدى يومه إلى مستقبله . . .
هذا الذي عندما تجلّى في سقراط وأفلاطون ، وعمر بن الخطاب
وماركوس أو ريلينوس ، وبودا وغاندي ، وهيغل وابن سينا ،
وشكسبير والمعرّي ، واينشتاين وابن الهيثم ، ودبّكارت وابن رشد
والفارابي . . . لم يكن يعني أنه حقق بهذا التجلّي كماله . . . وإنما كان
يعني أنه يختبر المازف التي ستعزف ذات يوم ، وإلى الأبد ، السمفونية
الكبرى واللحن المبقرى العظيم . ! !

أجل . . . كانت هذه المبقريات كلها — عيّنات — يكتشف بها
طبيعته واستعداده ، ويدرس عليها فطرته ، ويستبين بها وجهته ،
ويختبر صلاحيته .

وإنه لماضٍ إلى يومه الموعود . . . اليوم الذي يرفع فيه جميع أفراد
نوعه إلى مستواه . . . اليوم الذي يصير فيه كل فرد ، إنساناً . . . وتصبح

— ١٧ —

فيه كل الخصاص العظيمة التي تجلت في عبادة البشر ، مجرد طبيعة
عادية لكافة أفراد البشر . ! !
هذا هو دور الإنسان . .

هذه هي رسالته التي من أجلها يعمل ... هذه هي التبعة التي
استحق بها الزعامة على الأرض بما فيها .
هذه هي المخاطرة الكبرى الظاهرة التي كتبها الله له ... والتقى
عندها بأسرار الكون مُسَخَّرَاتٍ بأمره ، مُسْرَعَاتٍ إلى مشيئته .

صحيح أنه كان ذلك الحيوان الذي يغطيه الشعر في الغابة ... والذي
يجوب الأرض سالباً ناهباً ، يبحث عن صيد يسكت به سَعَارَ جوعه ...
صحيح أنه تعلم ذات يوم تنظيم حياته من مخلوقات أدنى منه
وأضال ... وأن بعض أسانده في ذلك الزمان ، كان الكلب ،
والغراب ، والنمل ، والنحل ، والعنكبوت ... ! !
صحيح أنه عاش أدهاراً طويلة ، بدائياً فظاً ، لا تزيد مظاهر
حضارته عن المهرات ، وحبال الصيد ، والرماح والمقاليع ... ! !
بل صحيح أن أشهى وجبات طعامه كانت — ذات يوم — تلك
التي تتكون من اللحم البشري الذي أطقن شِوَاؤُهُ ... ! ! !

— ١٨ —

وصحيح أنه استعبد الرقيق ، فلما ترقى ... استبدل بالرقيق الأجر
الكادحين ... !

وصحيح أنه شجذ للقتال مخالفة وأظفاره ... فلما ترقى استبدل بها
الحديد والبارود ... !

وصحيح أنه مارس السبي واغتصاب النساء ، فلما ترقى استبدل : بها
المخادنة والاحتذاء . !

صحيح أنه عاش طويلا في أحضان الوحشية والفوضى . .

صحيح كل هذا . .

وحق أكثر من هذا . .

ولكن ما ذلك جيمه ، وأضعافه معه ، بقادر على أن يعنى عن

فضائله . . فضائل هذا الإنسان العظيم . . صانع المعجزات : . . مبتكر

الثقافة . . مبدع الفن . . مُسبّر التاريخ . .

هذا الذي انبثق منه موسى ، وعيسى ، ومحمد ، وبوذا .

هذا الذي صنع الحضارات الغدّة عبر آلاف الأعوام .

هذا الذي ظهر في مصر القديمة ، وفي أثينا ، وفي روما ، وفي

بغداد ، وفرطبة ، وأوربا . . ألا إن الإنسان لم يكشِف بعد ، إلا عن

القليل من عظمته ، وإلا عن الأقل من مواهبه وقدراته .

— ١٩ —

وإنه لكادح إلى أغراض وجوده كدحاً ، فملاً قِيها ..
فانمض .. ، لننظر كيف يمضي عبر نفسه وصوب مصيره .

* * *

لعل أجبده لحظاتي في حياة الإنسان ، تلك التي اكتشف فيها
وجوده ، واكتشف مع وجوده حرته ، واكتشف مع حرته مسؤوليته ..
واقده فان هذا الكشف من أعظم آيات حده ، وأذكي
أمارات نبرته .

فمن غير وعي وتفكير ارتبط الثلاثة في روعه — الوجود ، والحرية ،
المسؤولية . وهو بعد لا يزال يجهل في دنياه .

عندما ألقي نفسه وحيدا في أرض موحشة غامضة ..
عندما جاء ، وصاحت به أمعاؤه الممتحلة ..
عندما شرّدت أمنه ، وزلزلت سكينته الوحوش الكاسرة ..
عندما أفتحته سبرات البرد ، وبعثته عاصفة تلو عاصفة
عندما ، نأقت يمينه ويسرة .. قدّامه ومن ورائه ، فما وجد أحدا سواه
لم يستطع أن يتصور نفسه وحيدا مفردا في كل هذا الفضاء والخواء ..
عندما يقاب في السماء وجهه ..

وكان عاياه أن يابث زماناً طويلاً فبلسا يُحسُّ أو يعرف أن له
مؤنساً ومُعيناً ..

ولكن عوامل إفناؤه ، وتقويضه لم تكن لتنتظر ، ومن ثمَّ وجد
نفسه مسوقاً للعمل وحده .. ولا بد أنه تهيَّب المخاطرة بادی، الأمر ،
لكن الأهوال الزاحفة ألقت عليه مسئولية دفمها ، وبادت كل قدراته
للمقاومة . . وهكذا تحركت يدها ، ورجلاه ، واحتشدت خلايا مخه ،
وأخذت مكانها على أرض المعركة .. ولوَّح للمخاطر بقبضته المارمة ،
فولت أمامه مذعورة .. كان يومئذ حراً ، لأنه لم يكن نمة دولة ، ولا
قانون ، ولا ملكية ..

وكانت التجربة هي دينه ، وقانونه .. يمارس الشيء بدافع من
فطرته ، فاذا استبان له نفعه أقبل عليه وأضافه إلى قاعة الأشياء التي
ينتفع بها ويعتمد عليها

وكانت مسئوليته عن نفسه ، وعن سلامته وبقائه ، هي التي تحدد
له مفهوم حرّيته . وهكذا ارتبطت الحرية بالمسئولية في وجدانه من قديم
بل وُجدت حرّيته كضرورة تقتضيهها مسئوليته . أي أنه لسكى يكون
مسئولاً ، يجب أن يكون حراً ، وإلا تقوض بناء مسئوليته ، وانهار
بالتالي وجوده ..

وكان هذا الرباط الفطري بين حرية الإنسان ومسئوليته .. نقول :

— ٢١ —

كان ، ولا يزال أصدق البراهين على أنه وُجد ليبقى . ويصعد .. ويسود ..
ولكن كيف وَجَدَ الإنسان مسئوليته ، ومن أى الأنواع تلقّاها .. ؟؟
إنها نبعت من ذاته المتفاعلة مع ما حولها .. أو بتعبير آخر ، نبعت
من علاقاته بالأشياء المحيطة به ، والتي تملأُ عالمه ..
علاقته بالمجهول الذي يملأُ فؤاده رَغْباً ورَهْباً - حملته مسئولية
البحث عن كُنهه ، واستطلاع غيبه ..

علاقته بنفسه - حملته مسئولية توفير حاجاتها الأساسية من مطعم
وملبس وصيانة .. كما حملته مسئولية العمل المشترك بين أفراد النوع كاه ..
علاقته بالأخطار التي تهب عليه في صورة أعاصير ، وتجرى هُجوله
في صورة وحوش مفترسة - حملته مسئولية مقاومتها وتحميها ..
علاقته بوطنه الأرض - حملته مسئولية إعدادها لتكون مقراً
صالحاً لطول النواء ..

ولقد مارس مسئولياته في كدح عظيم حتى إذا اطمأنَّ إلى قدرٍ
كاف من السيطرة على بيئته ، ودَعَمَ الزمنُ الطويلُ علاقته بهذه البيئة ،
شرع يفاسف هذه العلاقات ويحملها .. ومن ذلك الحين بدأت متاعبه
الجليلة ، وهمومه النبيلة .

وإنها لإحدى المفارقات التي تملأُ حياتنا . ففي الوقت الذي نبدأ فيه
نعرف ، نبدأ كذلك نتعب .. ذلك أن المعرفة - أى معرفة - تبدو
(٢)

.. ٢٢ ..

دائماً وكانها ولادة بين مخاضين ..

فستوليأتنا تلح علينا كي نعرف ..

ومعرفتنا تولد مسئوليات جديدة ..

والمسئوليات الجديدة ، تفجّب بدورها معرفة أخرى ..

ولقد كانت تلك العلاقات تنتشر وتمتد ، كلما قلب الإنسان فيها يديه يبرته

وكل فهم جديد لها ، كان يمنحها سلطاناً عليها ، وفي نفس الوقت

يمنحها سلطاناً عليه

وهكذا بدأ الإنسان يواجه مآزق حياته كلها . ومن عجب أنه بدأ

كذلك في نفس اللحظة ولنفس السبب يمسك بجميع الزوايا !

كيف صنعت المعرفة مآزق الإنسان ؟؟

قلنا : إن موضوع المعرفة تمثل أول ما تمثل في علاقته بالإنسان ..

وهذه العلاقات تنطوي على قدر كبير محير من الغموض والتناقض ..

فهو - مثلاً - لكي يسيطر على الظلام ، يصعد شدة النار ،

تنضيه له ظلماته المخيفة .. ولكن هذه الشعلة الضيئة النائمة ، تتحول

أحياناً إلى حريق ياتهم كوخه ، ويدمر معيشتة ..

وهذا البحر الذي سمح له أن يطفو فوق سطحه في زورق ، وبتداب

وشراع ؛ والتي يطعمه من أسماكها طريا ، يرسل إليه مدياً وانمياً

يبتلعه ويطويه تحت أمواجه ، ووسط غياهبه ..

-- ٢٣ --

وهذا المثلر — أيضا — يهطل غيثا يربط صحراءه الالهية ، ويسقي
أرضه الجديدة .. بيد أنه مرة أخرى يسيل طوفانا يقضي على كل ما عماته
أراد ، وهو في حاجة إلى كل ما حوله على الأرض من غايات وكائنات
يديم بها وحدة البقاء .. ولكن شيئا آخر يدعو إلى التنافس والمنافسة ،
اسمه تنازع البقاء .. !

وشو انكي يحصل على حاجته من شيء ما . ، عايد أن يعطى
ما يساوى قيمته من شيء آخر .. !

« ثم إذ بنادر السيد إلى الزراعة ويفرح بما سيقامه من استقرار
وبالأم وإخاء ، إذا بالوضع الجديد يشمر تقيض ما كان منتظرا منه ..
الرق والاستعباد .. !!

ثم هو يأخذ بنظام التوريث ليترك لأرثته الضمائم ما يصون
حياتهم .. فإذا هو يفضى إلى خاتق امتيازات ، وتبقيات ناسلة ،
لامية .

في الأسراء حوله ذات وجهين .. وكان الحياة تنهاها فعمل داخل
الأنس .. و .. تعد على التماقر والتنافس . مثل حركة كفاف الإنسان نفسه ..
التنافس . وانسداد . ثم انقباض . وانسداد .. وبينين الضنين
تأثنا دورة الدم بحراها ، وتبقى للسكان الحي حياته .. او مثل العلامة
البرانية (ا) فهي خطان متعارضان ينتجتان حاصل الجمع كاه .. لسكاننا

— ٢٤ —

حركة الحياة كذلك .. ضربة رأسية بالطول ، وضربة أفقية بالعرض ..
تناقض دائم ولُود ...

وفي هذا التناقض واجه الإنسان مأزقه . وفيه أيضاً عثر على الكثير
من وعيه ومن هنا دخلت مسئولياته مرحلة جديدة ، وصارت تتمثل
أكثر ما تتمثل في :

- اكتشاف علاقاته الصحيحة بجميع الأشياء ..
 - إدراك الفلسفة الكامنة ، في التناقض المائل ..
 - السيطرة على عملية التناقض في كل مظاهرها ، وتوجيهها دوماً
صوب المصير الإنساني ..
 - إن احتياجات الإنسان لا تنتهي .. والتعبير عنها كذلك لا ينتهي ..
 - احتياجاته كثيرة ومعقدة .. والتعبير عنها كذلك كثير ومعقد .
 - ولطالما أحدث ذلك ، النزاع والخلاف بل والحروب .
- فإذا هو فاعل اليوم ، وقد بلغ رشده ، ووجد وعيه .. ٢٢٢

لقد توافر الإنسان على دراسة نفسه وعالمه منذ وعاهما . وانتهت
خطوط تفكيره المتوازية حيناً ، والتداخلة أحياناً إلى مرحلة فسكورية
معاصرة تبدو لنا متمددة السمات ، مختلفات الاتجاه .

فند تكلم « هيجل » معلناً فكرته عن التطور التاريخي أو النتيجة المركبة ، اتضح طريق صعب على الفكر الإنساني أن يتجاهله .. وجاء التفكير الماركسي ليعيد تخطيط الفلسفة الهيجلية . ويليوى زمام الحركة التاريخية شطر التغيير الثوري .. نافضاً كلتا يديه من المثاليات كلها معلناً أن علاقات الإنتاج دون سواها هي التي تقرر مصير الجماعة الإنسانية ، وتقود زحفها . مؤيداً صراع الطبقات باعتباره الحافز إلى الشيوع المنظم ، وبالتالي إلى الثقافة النابئة من التفكير العلمي والمادى ، والتي تصنع بدورها أو تكتشف أخلاق المجتمع الجديد .

× ×

ولكن تفكيراً آخر معاصراً ، يمان أن أزمة الإنسان الكبرى ماثلة في تمزق صفوفه . هذا التمزق الذي يفضى إلى الحروب والدمار ، وينشر الأنانية البغيضة .. ومن ثمّ فلا بد من وحدة عالمية تحمل لواء حضارة عالمية واحدة تقوم على السلام ، والرخاء ، والمساواة .. والمساواة في هذه الوحدة لا تتحقق تلقائياً ، ولا تثمرها الموعظة الحسنة ، ولا التغيير الثوري .. وإنما تجيء بفرض رقابة اقتصادية ، عالية ، فدرالية . .

كما أن السلام ، والرخاء لا يجيئان عفواً الصدفة ، وإنما عن طريق التربية التي تلقن الإنسان أنه ليس مواطناً عالمياً وحسب .. بل هو أيضاً

— ٢٦ —

مواطن تاريخي ، بينه وبين كل عصور التاريخ أواصر قرني ونسب ..
ويتم ذلك كله في نظام يعتمد على الديمقراطية ، والحرية .

x x

وينهض تفكير ثالث ، مردداً من جديد صيحة سقراط « اعرف نفسك » ..

ومشكلة الإنسان الأساسية في هذا التفكير ليست، انتمتاده ،
ولا سياسية ، ولا اجتماعية . بل هي روحية خالصة .

فالقحط الديني والروحي الذي يعانيه الضمير الإنساني هو الذي
يهدد حياته ..

لقد صعد العلم بالإنسان إلى القمة ، ولكن أوقفه أعادته إلى
السفح .. 11

إنه - مثلاً - اكتشف الطاقة الذرية ، وبدلاً من أن يمول بها أرضه
المكدودة إلى فردوس بهيج .. ذهب وألقاها على « هيروشيفا »
و « ناجازاكي » فدمرها وأهلها تدميراً .. فتذير القات الإنساني ،
لا تغيير النظم ، ولا تغير المجتمعات ، هو مناص الخلاص .. والأخذ
بروح الدين ، ونبت شهوات الأنفس هما سبيل النجاة ..

- ٢٧ -

نعم . أن يضح الإنسان يده في يد الله . . . وألا يجعل غرض حياته
التعبير عن ذاته . بل إنكار ذاته . . . وأن يندر نفسه لحقيقة روحية
ساعية . . .

هذا - وحسب - هو ما يفتقده الإنسان اليوم لكي ينهض ويبلغ
كتابه أجاه .

x x

وفي هاتين آراء ، ينهين تفكير آخر لا يقول : « اعرف نفسك »
وإنما يصيح : « أريد ذاتك » . . .

لكي نعرف أنفسنا ، علينا أن نتأكد من وجودها
إننا أعدينا العقل لتفكير به ، فألغيناه . . . وأعطينا الغرائز لتشبعها
فقمعناها . . . وأعدينا الحواس لتظل منها على العالم الموضوعي فمعلناها . . .
إن الإنسان فرد . قبل أن يكون مجتمعا . ومن حقه الكامل أن
يختار قيمه وطريقة حياته . . . ومن وجوده المحض . . . وجوده الذاتي يستمد
بما يبره الخامة .

ويرى هذا التفكير ، أن مشكلة الإنسان تتمثل في أن حياته اليوم
أشبه ما تكون بزقاق مسدود ، تتشأها « طمانينة زائفة » وتحركها

— ٢٨ —

« رَتَابَةٌ مُمِلَّةٌ » وأنه — أى الفرد الإنسانى — يعيش ممثلاً فى دور مفروض عليه ، ويقضى عمره تأهلاً وسط مخلوقات تأهله أى أنه لا يعيش حياته ، وإنما يمثلها . .

والخلاص إذن أن يدرك الإنسان أنه خالق نفسه ، وأن يحيا فى نطاق « قدره الشخصى » الذى يصنعه هو لا « قدره الاجتماعى » الذى يريد له المجتمع . ، وأن يخرج حياته من رتابتها المملة ودورها المصطنع . .
إن ماهية الإنسان أمر ثانوى بالنسبة لوجوده . أو هى أمر تال للوجود . .

والمفهوم الصحيح للوجود ، هو الاختيار . . وهو القدرة على تحظى الوضع المائل ومجاوزته .

x x

ويعلم تفكير آخر أن مشا كل الإنسان جميعاً ، قد تسلمتها اليد البارة ، يد العلم . .

والعلم وحده هو الذى سيقود الإنسان إلى غايته ، ويجمعه بمستقبله العظيم . وإن علوم الطبيعة ، والكيمياء ، والنفوس ، والأحياء قد برهنت بعد الشوط الطافر الذى قطعته على جدارتها بحمل العبء كله . . والعلم

سيجعل المشا كل الافتصادية كلها مباحج ومناعم حين يوفر من الرخاء
مالا يخطر ببال .

إن العلم الذي أحال الصحراء إلى مزارع .. والذي أنجب من الأنعام
المهزيلة سلالات فذة تعطى الواحدة منها من اللبن في حلبة واحدة ،
مثلاً كانت تعطيه سبعون أو ثمانون .. والذي أخرج من القول السوداني
وحده قرابة مائتي نوع ما بين غذاء ، وكساء ، ودواء .. والذي بسط
يده إلى القطب المتجمد ، داعياً إياه إلى الاستسلام كي يستثمره
ويزرعه .. والذي أنزل كثيراً من الأمراض العصبية عن عروشها
الباغية ، وخفف نسبة الوفيات ..

العلم الذي عكف على العقل الإنساني ، وعلى النفس البشرية وبدأ
يكشف أسرارها . ويسبر غورها .. والذي صعد بالآلة وبالصناعة إلى
ذروة السمل والإنتاج .

العلم الذي طار إلى القمر ، ثم جاوز القمر إلى الشمس .. هذا العلم ،
هو الذي يحمل البلسم الشافي لكل متاعب الإنسان ومصاعبه ، وهو
الذي سيقوم بتطوير الإنسان تطويراً كاملاً في كل مجالاته الخلقية ،
والفكرية ، والاقتصادية ، والاجتماعية .

ومشكلة الإنسان إذا كانت له اليوم مشكلة ، هي ضعف ثقته بالعلم ،
وضعف قدرته على مسايرة العلم .. ولكن حتى هذا الأمر ، سيتولى
العلم علاجه ، وليرفمن الإنسان إلى مستواه في يوم قريب ..

— ٣٠ —

هذه تقريبا — هي الفلاسفات المعاصرة التي تعمل في خدمة
الإنسان ، وهذا هو منطقها .

فأين الإنسان من كل هذه الفلاسفات ...؟؟

إنه خالقها جميعاً ، ومُبدعها . ولقد كانت كلها مستقرة في رُوعة وفي
فطرته منذ أيامه الأولى على هذه الأرض وفي أشد عصوره الماضية ،
جهالة وحُلْكة .

وإنا لنستنبط من هذه الظاهرة رأياً نحسبه صحيحاً . . هو أن
شرما يصيب البشرية من تمزُّق وخلاف ، إنما يحدث يوم تعزل
الإنسان عنها وتنسأه .

فمعظم نزاعنا الديني ، والعلمي ، والمذهبي ، كثيراً ما يسببه أننا نتعامل
كما لو كنا عوالم شتى متنافرة . . ولسنا صفاً واحداً ، تتوسطه حقيقة
معلومة هي الإنسان . .

إن الفلاسفات ومناهج التفكير التي عرضناها آنفاً تمثل كل ألوان
الصراع الفكري القائم في مجتمعنا الإنساني اليوم . . فلننظر الآن كيف
أن « الإنسان » يتضمنها جميعاً ، ويتطلبها جميعاً كحاجات أساسية له
ولحياته منذ وعى نفسه ، وليس اليوم فحسب . .

فالفزعة الروحية مثلاً ، تعتمل في الوجدان الإنساني من قديم
عهده . كما تعتمل في وجدانه من قديم ، قيمة التركيز على وجوده ،

— ٣١ —

وقيمة الإنتاج وفاعلية علاقاته ، وقيمة العلم والتجربة .

كيف حدث هذا ؟؟

فلنفحصها جميعاً . واحدة واحدة . .

x x

لقد أحسَّ الإنسان قديماً ، وقديماً جداً ، حاجته إلى الدين ،
فذهب يتكشفه .

وقد تبدو كلمة — يتكشف — هنا ، انحرافاً وتجديفاً .

قد تكون عَسيرة الهضم لَدَى أولئك الذين يرون أن الدين هو
الذي اكتشف الإنسان . ولكن الحقيقة هي ما نقول : إن الإنسان
اكتشف الدين . . . ولكننا اختارت الحكمة الإلهية له هذا الطريق ،
ولسوف نوضح هذه النقطة في فصل قادم . والآن نضرب لما نقول مثلاً .
تقدمه لنا وثيقة لا تكذب هي نبأ إبراهيم في القرآن الكريم .

وإبراهيم — كما نعلم — هو الأب الروحي للديانات الثلاث —
اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام .

لقد رأى إبراهيم القمر بازغاً يتلألاً ، وكان آتئذ يبحث عن رب
يعبده . ويشبع بعبادته حاجة ملحة في نفسه ، ويملاً فراغاً أضنى وُجدانه
قلقاً وخوفاً . فأشار للقمر الذي بهره نوره ، وقال : « هذا ربي » . .

— ٣٢ —

ولكن القمر أفل . . وأدركته الليالي التي يخبثق فيها ضوءه ،
ويتحول إلى محاق . . فهز إبراهيم كتفيه اسفاً . . وقال : « لا أحب
الآفلين » . .

وأبجه صوب الشمس ؛ فلما رآها بازغة ، قال : « هذا ربي . هذا
أكبر » . . .

فما أفلت ، قال يا قوم إني بريء مما تشركون . .

ومضى إبراهيم يبحث عن دينه ، بل يبحث عن ربه وإلهه .

وإنه ليتصور الإله كإله مطلقاً . . ولقد ابتغى الكمال في أقرب
مظانه ، وهو القمر المضيء . . ثم في الشمس المشرقة باعثة الدفء والحياة .
حتى إذا اكتشف حاجتهما إلى الكمال . ضنَّ عليهما بالربوبية . .
ولم يكفَّ إبراهيم عن بحثه واستشرافه ، لأن حاجة في أعماق نفسه
البعيدة تحفزها وتدفعه — وإبراهيم في بيئته وفي عصره ، كان يمثل أعلى
مناسيب الذكاء الإنساني .

انظروا طريقته في البحث عن ربه . .

إنه مع كونه مُخْبِتًا عابداً ، يبحث بحث فيلسوف حر . .

يقتش في الأنهار ، والبحار ، والزرور ، وبين الخصب والتماء ،
حتى إذا لم يجد في الأرض ما يمثل صورة الكمال الإلهي عنده ، يتجه
إلى السماء ويركز بصره على أكبر أجرامها . . حتى إذا لم يحقق له مثله

— ٢٣ —

الأعلى ، ينفض عقله وقلبه من المجسمات جميعاً . . ويشير إلى السرّ
الأكبر الكامن في الحياة وفي الكون ، ويهتف وقد وجد يقينه :
« إني وجهتُ وجهي للذي فطر السموات والأرض ، حنيفاً
مُسلماً ، وما أنا من المشركين » . .

مَنْ هذا الذي فطر السموات والأرض . . ؟ ؟

ما صورته ؟ . . ما مشهده ؟ . . ما مكانه ؟ . .

ذاك شيء لا يشغله الآن . . إنما يعنيه وجود الرب القدير الكامل
الذي يملأ فراغ نفسه الطلّمة ، والذي يفسّر وجوده ، ما في هذا الكون
العجيب من آيات بينات . .

ولقد جاءت من بعد إبراهيم عليه السلام ، كجاءت من قبله مواكب
الأنبياء والمرسلين . . وقامت الأديان والشرائع ، وسار على الأرض آلاف
من القديسين والحنفاء ، فما زادوا في الجوهر شيئاً عن رؤية إبراهيم
هذه الرؤية التي زاملت الإنسان من فجر تاريخه شعوراً مُلِحّاً ،
وهتافاً دائماً يدوّى في أعماقه والتي أجاد إبراهيم إدراكها والتعبير عنها .

x x

وكما أحسّ الإنسان حاجاته الروحية والتمسها في الدين ، أحسّ
كذلك حاجته إلى التركيز على وجوده

— ٣٤ —

تقد ولد الانسان في مهده وجوديته .. وحين بدأ يعي نفسه كان يحقق
وجوده المحض بطريقة تلقائية فطرية

لم يكن ثمة أوامر ، ولا نواه ، ولا قيود ..

ولم يكن يمثل حياته بل كان يعيشها كاملة غير منقوصة

وكان قدره الشخصي صاحب الكلمة الأولى ، والعليا في توجيه
حياته . فليس هناك حكومة تخضعه ، ولا مجتمع يصهره

ولقد مكث طويلا ، يدور في فلك وجوده المحض .. وحتى بعد أن
خشى العزلة على نفسه وعلى كيانه ، ونادته ضرورات بقائه ليندمج
فرديته أمينة على حقوق ذاته ، ساهرة على دعم وجوده .

كذلك أحس الانسان في طفولته المبكرة حاجته إلى تنظيم
إنتاجه .. وأحس .. ولا أقول وعي - أهمية علاقات الإنتاج . بالنسبة
لصيره . وإن الطريقة التي كان يفرق بها الإنسان الأول بين الملكية
الشخصية ، والملكية العامة لتكاد تبهز الأبواب بما تكشف من إحساس
ذكي بأهمية علاقات الإنتاج

فالإنسان في ذلك الدهر الأول كان يقدر الملكية الخاصة
ولا يسمح قط بالافتيات عليها . . وبلغ من ارتباطه بها أن كان يأخذها
معه إلى قبره بعد موته ، حتى الزوجة باعتبارها ملكا له . كانت تفقد

— ٣٥ —

حياتها حين يموت زوجها وتأخذ مكانها إلى جواره في القبر بين ممتلكاته
الخاصة . . !!

هذا الولاء الضاري للامتلاك لا نجد له أثراً حين تغادر الأشياء
الخاصة إلى المنافع العامة كالأرض مثلاً . .

فالأرض عند ذلك الإنسان كانت كالماء والهواء لا تباع ولا تملك . .
وهي ملك لكل الذين يعيشون عليها ويعملون فيها . . !!
وليست الأرض وحدها ، بل والقوت الذي يخرج منها .

وكم يأخذنا العجب ، حين نعلم أن الإنسان الأول وضع لنفسه
ولجماعته تقليداً : ألا يقرب طعامه إلا بعد أن يقف خارج كهفه ،
ويصرخ مندوباً بطريقة خاصة يدرك كل من يسمعا أنها دعوة إلى طعام .
واعتر الإنسان البدائي بهذه المشاركة في الأرض التي كانت الوسيلة
الوحيدة لإنتاجه عندما وجد أنها تتيح لأفراد الجماعة علاقات ودودة
لا أنانية فيها ولا نزاع .

ومن البقايا المتخلفة عن ذلك الإنسان القديم ، التقى « الفرد رسل
ولاس » ببعض منها في أمريكا الجنوبية فقال (١) :

« لم أجد بينهم قانوناً ، ولا محاكم سوى الرأي العام الذي »
« يعبر عنه أهل القرية تمبيراً حراً . . »

(١) كتاب « قصة الحضارة » تأليف ديورانت

- ٣٦ -

« فكل إنسان يحترم حقوق زملائه احتراماً دقيقاً . »
« والاعتداء على هذه الحقوق ينذر وقوعه أو استحيل »
« إن الناس جميعاً في مثل هذه الجماعة متساوون تقريباً . »
كذلك التقى « هرمان ملقييل » بقوم آخرين في جزيرة « ماركساس »
قال عنهم :

« أثناء وجودي بين قبيلة التايبي لم يقدم أحد قط »
« للمحاكمة بتهمة الاعتداء على غيره من الناس، وسار »
« كل شيء في الوادي سيراً هادئاً متسقاً على صورة »
« لا تجدها مثيلاً في الجماعات المسيحية مهما انتقيت منها »
« خيرها ، وأصفاها ، وأتقاها »
« وإن في هذا القول منى لجرأة أستبيحها ، لأنه قول »
« صدق .. »

x x

كذلك أحس الإنسان قديماً جداً، قيمة العلم وممارسه قبل أن يعرف اسمه
نعم مارس الإنسان العلم التجريبي على النطاق اليسور . .
لم يكن يملك المعامل ، ولا الأجهزة ، ولا المختبرات ، بل ولا الوعي

الذي يلاحظ به الظواهر ، ويستنبط به القوانين ، ومع هذا أحسن حاجته للمحاولة العلمية ، وعبر عنها في حدود طاقته ، ومضى يكتشف ويستخدم ، فاكشف النار ، واستخدم الحديد ، وما وقفت به القناعة عند شيء واحد ، بل كان دائماً يجاوز الأشياء إلى خير منها فهو - مثلاً - بدأ يولد النار من الشرر المتقاذف حين يطرق حجراً بحجر وكان من الممكن أن يكتفى بهذه الوسيلة بإدامت نظره بحاجته من اللهب غير أن هذه الوقفة ضد طبيعته ، وما دام قادراً على تصور وسيلة أفضل فلتن تهبأ نفسه حتى يبلغها ويخرجها إلى الوجود وهكذا يترك الحجر إلى أدوات تقذح لها النار ، مضى يشكها ، ويطورُها في دأب يشير إلى إصراره الفطري على اكتشاف الأشياء والسيطرة عليها . . واليوم ، نبصر لكل مظاهر التقدم العلمي جذوراً في المحاولات البعيدة الغريرة . .

فالصواريخ الموجهة : ليست إلا امتداداً لنفس المحاولة التي بدأها الإنسان القديم بقذف الحجر ، والرمي بالقلاع . . .

وأحدث وسائل إطفاء الحريق اليوم ، امتداد لمحاولته الأولى ، إطفاء النار بالطين . . .

ووراء كل ظاهرة حضارية ، وكشف علمي ، ملايين المحاولات ، والحلقات التي يُعتبر كل منها أثراً لما قبلها ، وسبباً لما بعدها . . .

وإذا كان الإنسان الأوّل لم يدرك المفهوم الذي يدركه أسلافه . . .

— ٣٨ —

اليوم لكل من العلم والمضارة ؛ فإنه قد أحس في عمق حاجته إليهما ،
ومارس كلا منهما بممارسة فطرية .

مارس العلم ، كشيء يسيطر به على الطبيعة ، ومارس المضارة ،
كجموعة من الاستجابات تُطور حاله إلى أرق وإلى أفضل .

• • •

إن الإنسان يحقق ذاته ويجاوزها دائماً . . والمستويات التي عبّر
فيها عن استشرافاته الدينية ، والعملية ، والفلسفية تختلف وتتفاوت
لهذا السبب - أعني مجاوزة ذاته .

ولكن القاعدة التي لا تكاد تتخلف ، والتي ينبغي أن نكون على
وعي بها هي أنه يسير عبّر نفسه .
إنه يتلقى احتياجاته ويستجيب لها . . ويكتشف قدراته
ويعبر عنها .

ونفسه هي كل هذا العالم الممتلئ المقم بالأسرار . . عالمه النفسي ،
والمعقل . . عالم شعوره ، وفكره ، وإرادته .

لهذا يكون ظلماً أكيداً له ، وجهلاً واضحاً به ، أن نسجته في زاوية
من زوايا وجوده الفسيح المتراحم ونحصر كل استشرافاته ونشاطه في
انعكاسات هذه الزاوية وحدها .

— ٣٩ —

ذلك أن جوهر العمل الإنساني ، هو تحقيق الكيان الإنساني ،
ودعم انتشاره المستمر ، ونموه اللانهائي ، حتى يتمكن الإنسان دائماً من
عملية التخطي والتجاوز التي يتم بها معرجه .

والكيان الإنساني متمدد الاحتياجات كما أسلفنا ، ومن ثم فلا بد
أن تحظى بالتقدير والاحترام كافة استشرافاته الدينية ، والعلمية ،
والفلسفية ، مادامت وثيقة الصلة ينقأها الفطري . ومادامت بمنأى عن
الإضافات الكاذبة المفتعلة التي تطفلت عليها عبر الزمن .

وهكذا نتلقى بالحفاوة سمي الساعين لتحرير وجودنا ، والساعين
لإعلاء كلمة الله في أفئدتنا ، والساعين لربطنا بحركة التاريخ ربطاً يجعلنا
سادة الإنتاج لاعبيده ، والساعين لأرباء مكانة العلم ، والداعين للاعتماد
عليه في كل شئوننا .

ونحن نبارك الحوار والجدل ، بل والنزاع الفكري بين هؤلاء
جميعاً بعضهم لبعض إذا كان تركيز كل فريق منهم على اتجاهه يعني إبراز
المزايا النهائية ، أو الممكنة لهذا الاتجاه . . . أما حين يعني هذا التركيز
التفرد والسيطرة ، بمعنى أنه وحده الحق ، وما سواه باطل وغرور . . .
فأنتد يحق لنا أن نشك كثيراً في قيمة هذا الادعاء

لسنا نحاول بهذا عقد صلح بين الفلسفات ووجهات النظر الكبرى .
إنما نريد أن نركي فكرة تبلغ من اهتمامنا أقصاه . ، هي أن الإنسان

— ٤٠ —

— كما أسلفنا — يسير عبر نفسه .. ونفسه عالم مملوء بالاحتياجات .
وطبيعته النهائية لم تعرف لنا بعد حتى نتصيد مزاها الأوحى .
ولذا ، يتحتم جعله المعيار لكل عمليات تطوره وحياته . . ويتحتم
احترام احتياجاته النابعة من أعماقه .

ولقد حذق الإنسان الدرس من أقدم عصوره . فوأم ثوامة
فطرية ذكية بين كل احتياجاته دون أن ينقسم من أجلها على ذاته .
كان يرسل الطرف في خشوع نحو معبوده . وفي نفس الوقت يتابع
محاولاته المتواضعة للكشف والاستخدام اللذين يسيطر بهما على عالمه ،
وكان يكتشف علاقاته وينظمها . ويدعم وجوده — في ذات الوقت الذي
يبني فيه مجتمعه . .

صحيح أن بعض مراحل تقدمه ، تفسح الطريق دوماً لمراحل أخرى
جاء دورها . . لكن ذلك لا يعني تهديم بنيانه . . بل يعني تكامل البناء .
وبعبارة أخرى نقول : إن الإنسان خلال تقدمه لا يفقد السيطرة
على نفسه ، وإنما يعززها ويظفر بالكثير من وجوه إدراكها . . وهو
بهذا لا يتخلى إلا عن تلك الاحتياجات العارضة التي كان لها دور موقوت .
بينما يظل متشبهاً بالأخرى التي لها بجوهره وشائج وأسباب .

والإنسان لا يعرف أنصاف الحلول ، ولا يقفل راجعاً عند منتصف
الطريق . وإنما يذهب بفرائزه وبأشياءه إلى نهاياتها . . ثم يجاوزها إلى

— ٤١ —

سلوك يتضمن أسباب كفايته في مستوى أعلى . .
وكما أنه قادر على تحويل غرائزه الحيوانية إلى حاجات إنسانية . .
فسيكون قادراً على تركيز هذه الحاجات في النمط أو الأنماط الملائمة
وعلينا - إلى أن يفعل هذا - أن نحترم احتياجاته القائمة . .
إن الذين يحاولون وضع الإنسان داخل إطار فلسفي معين يشبهون
الذي يحاول تركيز أخبار الهرم الأكبر في هذه العبارة « مجموعة من
الحجارة المرصوفة في ارتفاع طوله . . . وقاعدة عرضها . . . » !!
فالهرم الأكبر فعلاً مجموعة من الأحجار ، ولكنه ليس ذلك
وحسب . . بل هو أسرار وتاريخ ، وحضارة . . هو عالم حافل بمعجزات
العلم ، ومتطلبات الروح ، وعمل السواعد الشداد !!
كذلكم الإنسان لا يستطيع أحد أن يدعيه لنفسه ، لارجل الدين ،
ولارجل العلم ، ولارجل الفلسفة . .
ومصايره ليست بيد معتقده وحده ، ولا بيد الفلسفة ، وحدها
ولا بيد العلم وحده . .
إنما هي بيده . . يد الإنسان العائش وسط احتياجاته ، المدرك
تبعات حياته .
وكما تألق هذا الإنسان في قلب عهد المسيح ، وموسى وإبراهيم ،
تألق أيضا في قلب بوذا . . وتألق كذلك في قلب الفارابي ، وابن رشد ،

— ٤٢ —

وابن سينا ، وأرسطو ، وهيكل ، وماركس . . . وتآلق أيضاً في قلب
كوبرنيكس ، وابن يونس ، وجاليليو ، ونيوتن ، وأنيشتاين ، ودارون ،
وجابر بن حيان ، وابن مسكويه وتآلق في قلب أبي بكر الرازي ،
وباستير . . . وفي قلب المرّي وشكسبير .

وهو في كل هذه التآلقات التي تفاوتت منازلها ومصادرها لم يكن
يتنزه أو يزجي فراغاً . . . وإنما كان يعبر نفسه ، ويعبر عنها .
كان يكشف عن حاجة في صميم كيانه ورسالته ، تدعوه للتحليق
في كل هذه الآفاق جميعاً . . . آفاق النيب وآفاق الشهادة . . . آفاق الدين ،
وآفاق العلم ، وآفاق الفلسفة . . .



الإنسان مادة حضارته

— ٤٠ —

كان « قولتير » يقول : « أريد أن أعرف الخطوات التي سارها الإنسان من الهمجية إلى المدنية » و — قولتير — بعبارة هذه يصور حاجة من أذكي حاجت وعينا الإنساني .

فمعرفة كيف سار الإنسان ذلك الشوط المديد المنهك ، وكيف غادر الغابة إلى المدينة ، والوحشية إلى الحضارة ، وفي أية قافلة مقتحمة مُكابدة اجتاز الصعاب ، وتخطى الأهوال ، واقتحم المخاطر . .

معرفة هذه ، وحسن إدراكنا لها أمر ذو بال وخطر ، في تقييم الإنسان واكتشاف دوره .

وإذا لم يكن هذا الكتاب مجالاً لتفاصيل هذه المعرفة ، وتتبع خطوات الطريق جميعه ، فإنه — وحسبه هذا — سيكتفى منها بالسّمات التاريخية التي تنبئ في صدق ، كيف كان الإنسان ، ولا يزال ، مادة حضارته . لقد أَلِفْنَا أن نربط بين المظاهر الحضارية ، وبين الطبيعة .. أوبينها ، وبين ظروف أخرى موضوعية .

فمثلاً ، الحضارات التي قامت على شاطئ البحر الأبيض ، وعلى شطآن أنهار النيل ، والفرات ، ودجلة ، والكنج ، والدانوب ، والسين والتايمز . . كثيراً ما نجعل هذه الشطآن مادة تلك الحضارات .

ونحن ندرك بدهشة أن هذه الحضارات لم تكن شيئاً ثاوياً داخل أصداف البحر، وقيعان الأنهار .

— ٤٦ —

ولطالما لبثت المحيطات والبحار ساجية أو هادرة ، تصطفق أمواجهها
آلاف القرون في خواء موحش حتى أتاها الإنسان .. وعندئذ طوعها
لأغراض وجوده ، وغرّس على ضفافها المساجمة مباحج فنه وروائع
حضارته .

وكذلك نصفُ عصرنا هذا بمصر الآلة .. وننطق كلمة « الآلة »
في فتون ، وهيام ، وتبثل .. وكأنما نريد أن ننسى في ضجيجها الحافل
شأن خالقها العظيم .. الإنسان .. !!

الحق أنني بهذه السطور أقرر بديهية معروفة .. وليس أسوأ ما في
الأمر حاجتنا إلى تذكرها وتدبرها ... بل حاجتنا إلى التوسل بها للدفاع عن
الدكاء الإنساني الذي هو في عصرنا هذا موضع التندر والاتهام .. !

أجل ، إن الدكاء الإنساني الجدير بكل ثقة وكل حفاوة وكل احترام
يُتهم اليوم ، كما اتهم في عصور سالفة بجريمة القتل ، والقضاء على الجنس
البشري كله ..

لقد كان هذا شأن الناس معه في عصور خلت .. بيد أنه في عصرنا
هذا يأخذ أوفى حظوظه من هذا الاتهام .. !!

كلما اخترع سلاحاً جديداً .. كلما اكتشف من قارات المعرفة
والعلم جديداً .. طار صواب الناس ، وقالوا : وداعاً للحياة .. شهيدة
ذكاء الإنسان وغروره .

— ٤٧ —

والناس في هذا التطير معذورون ، وملومون .. معذورون .. لأن
الذكاء الإنساني في انطلاقة الجسور يخطف أبصارهم ، ويفجأهم
بالمعجزات التي ما كانت تخطر لهم ببال ، فيتركهم سُكاري ، وما هم
بسُكاري .. !

وملومون .. لأنهم لا يسيطون عقولهم بعض البسط فتعود إليهم
بكل أسباب الثقة بذكاء الإنسان .
إنهم يركزون أبصارهم على الأفراد ، والجماعات ، والحكومات ،
والمخترعات ، والأحداث ... وطبعي أنه من اليسور لهذه القوى إذا
احتمت التناقض بينها واضطربت موازينه ، أن تنتهي إلى كارثة الختام ..
بيد أنهم ينسون الحقيقة الناصعة الفاعلة والبائرة وسط هذا
الشَّتات .

أجل ، ينسون الإنسان .. !

وسيدو لكثيرين أن يتساءلوا : وما الإنسان ؟ . أليس هو هذه
الأشياء التي سلفت : الأفراد ، والجماعات ، والأحداث .. ؟؟ .
أجل ، ما الإنسان الذي هو مادة حضارته ، وأستاذها ، وخالقها ؟
هل هو الفرد .. ؟ أم هو الجماعة .. أم هو التاريخ والحركة الإنسانية
الدائمة .. ؟؟

أم هو شيء خارج عن هذه جميعاً .. ؟؟

-- ٤٨ --

الحق أنه لا بد من تتبع التفكير الإنساني في هذه المسئلة قبل أن
نظفر بجواب ؛ فقد اختلفت أحكامه ، وتمددت افتراضاته في سبيل
الوصول لمن صاحب الدور الفعال في بناء حضارتنا .

يخرج من بين الجماهير الطامية ، والجموع الفقيرة أفراد يرتفعون في
الأفق كالشموس .. هذا رسول ، وهذا عالم ، وهذا فيلسوف .. ولا
يكادون يُطَلَّون على الناس برسالاتهم حتى يلقفوهم ويقودوهم إلى الطريق
الذي يختارون . ونبصر أثرهم في توجيه الحوادث واضحة ، فننمتمهم بأنهم
المغيرون وجه التاريخ . ونرى الخلود الذي يظفرون به عبر الأجيال
ويتفوقون به على الزمن فلا يداخلنا ريب في قيمتهم كأفراد أفاض ..

● - مثلا نسمع اسم سقراط ، فنتساءل من فورنا أين أمة سقراط .
أين أثينا التي ظهر فيها وخفق في سماها .. ؟

لقد فنيت أمته ، وفنيت مدينته ، وبقي - الفرد - سقراط يتنقل
في وعى الأجيال .. بل لقد تحول إلى شمس بشرية ، دارت في فلكها
كواكب من البشر ونجوم ..

● - ونسمع اسم نابليون ... رجل كتب في طفولته وهو تلميذ
صغير لافتة وضعها فوق مكتبه « يجب أن أكون جنرالاً » .. ا

— ٤٩ —

ومع مطلع الصباح كل يوم ، كان كما يقال — يستقبلها في مَرَحٍ صبياني ، وأيضاً في جِدِّ طفولي .. ويؤدي لها تحية عسكرية ، ويصرخ « يجب أن أكون جنرالاً » وأياً ما يكون شأن هذه القصة ، فقد كان جنرالاً . ، وامبراطوراً ؛ وغازياً ؛ فاتحاً .

ولقد ذهب يقود بفرديته جيشاً لا يتعب ، ولا يسأم ، ولا ينهزم حتى التقى أخيراً بالجنرال — ينار — على حد تعبيره فجمدته ثلوجه . وبدده صقيمه .. وحين كف الفرد نابليون عن العمل وتخلف عنه حظه رجع التاريخ عن الطريق التي كان سائراً فيها معه . وعاد يلتمس طريقاً أخرى هكذا تصورنا دور الفرد في مغامرة نابليون ..

● — وفي مستوى أعلى يتهدى لنا دور الفرد في رجل مثل «ماركس»

رجل حادّ الذكاء ، إعصاري الإرادة ، كتب «رأس المال» فحرك به المعرفة الإنسانية وغير اتجاهها ، وأثار في أعماق المحيط البشري مدّاً ثورياً عالياً .

ومن المسلم به أن هذا الفرد بذكائه النفاذ ، بدأ يدفع التاريخ منذ أرسل نذيره ، وهو بهذا يشير إلى دور الفرد في صنع التاريخ ، وبالتالي في إنشاء الحضارة ..

● — وفي مجال السياسة يشرّب أماننا رجل ملأ الدنيا وشغل

الناس ، هو «بسمارك» ..

— ٥٠ —

هذا الألماني الداهية ، ماذا كان مصير ألمانيا ، والاتحاد الألماني ، بل
والتاريخ الألماني كله لو لم يظهر هذا الفرد المفسم ذكاء وحيلة .. والذي
يحمل إرادة لا تعرف التهييب ، ولا التردد ، ولا المعجز .. »

x x

هذا منطلقنا حين يهرنا دور الفرد ، ويجذبنا بريق بطولته ..
لكننا نعود فننهر بضياء آخر ، وننشئ منطقاً آخر - حين تناديننا
« الجماعة » كاشفة عن كفايتها وسلطانها .. عندئذ تتجه صوبها ،
ونكاد نزرع الراية من يد الفرد ، ونسلمها إياها ..
فكل فرد مهما عظم دوره ، واتسعت كفايته ، ليس في التحليل
النهائي سوى ثمرة يديته ومجتمعه

• • فسقراط - مثلاً - نشأ في مجتمع يتمتع بحرية سابغة في الفكر
والقول والعمل . مجتمع يمارس الفلسفة على نطاق واسع ، ومع هذا فثمة
فراغ كبير بين تفكيره ووجدانه . فهو - أعني المجتمع - يتحدث في كل
شيء ، ويفلسف كل شيء ، ويتعقب بالفحص والتفسير كثيراً من
ظواهر الكون والحياة . بيد أن وُجدانه يتخضع للأساطير وينحط من
الحجارة آلهة معبودة

— ٥١ —

إنه يحدس بيديها سامقة ، أن الأرض كرة ، وأن النرة تنطوي
على طاقة هائلة ..

ثم ينتقل من هذا الحدس الذكي إلى الخشوع الضارع أمام آلهة
الأولب الذين يتداول عنهم من أبناء النزاع والصراع والتنافس ما يضحك
ويشير .. ! والمجتمع يحسُّ هذا التناقض ، ويتطلب من يحل عقده . أجل
يتطلب رجلاً ذكياً يملأ الفراغ بين عقل الجماعة ووجدانها .. أو بتعبير
آخر ، يزحف بعقل الجماعة نحو غريزة القطيع فيها ، وينتزع من الخرافة
الأرض التي تقف عليها ؛ ويضع أمام كل أسطورة علامة استفهام ضخمة

وهكذا ظهر أقدر الناس على هذا العمل ، وكان سقراط ..

• • — نابليون .. ماذا كان نابليون ؟؟

إنه ثمرة حكومة الإدارة في باريس من جانب . ، والطبقة الوسطى
« البرجوازية » من جانب آخر .. لقد انتدبته حكومة الإدارة ،
كقائد عادي لرحلة عادية .. فلما كشف عن كفاية عسكرية تلائم
أطماع هذه الطبقة وتستطيع أن تخدم أهواءها ، تلقفته البرجوازية
الفرنسية ، وسلطت عليه الأضواء ، وتولته بكل وسائل الدعاوة ،
وصنعت له الأجداد التي جعلته بطلاً أيّ بطل : . ومن ثم ركب نابليون
ثبيج الشهرة وسخرت له كل قوى دولته فضرب بها ذات اليمين
وذات الشمال .

• • • — وماركس

لقد التقى بشبابه في مجتمع نائر متطلع . . فقاطمة « رينانيا » التي
نشأ بها ، كانت قد رحبت بجيوش فرنسا التي ستنقذ أهلها من الأقطاع ،
وتُجهز على السلطان المطلق الذي يعيث به في الأرض فسادا ، الأمراء
الإقطاعيون . ولكنها بعد عشرين عاما قاست خلالها قسوة الفرنسيين
سيما في نهب الضرائب من أهلها ، عادوا ييمون وجوههم شطر
« بروسيا » . . ثم يماودهم الحنين مرة أخرى إلى فرنسا بعد أن أذلهم من
جديد الحكم البير وقراطي الاضطهادي في بروسيا :

وكانت الأفكار الاشتراكية تزحف . . بل كان شبح الشيوعية
— كما يقول لوفافر — يهدد أوروبا ويهيم في آفاقها . . كل هذا قبل
أن يخط « ماركس » سطرأ واحداً في الماركسية .

ولقد بدأ شاعراً ، يهوى الشعر ويمد نفسه ليكون أديباً ، وكان
عضواً في نادي الشعراء . . ولكن روح الجماعة التي يعيش بينها ،
وانطلاقها الثوري آتئذ ، والأزمات الاقتصادية الماحقة ، والاضطهاد الوعر
الذي سلكه غليوم الرابع ، كل هذا لوى زمام « ماركس » إلى الفلسفة
ثم إلى الماركسية نفسها .

— ٥٣ —

هكذا ترفع لواء الجماعة ، ونجد من المنطق الذي يؤتق دورها ،
مثلا وجدنا من قبل ، المنطق الذي يُجَلِّي دور الفرد .

بيد أن وعينا لا يلبث أن يتجه نحو مسارٍ آخر ، إذ يبصر التسلسل
الواضح ، والوعي المستتر في حوادث التاريخ وفي حركته ، فينادي
بأن صاحب الدور الحقيقي في تطور الناس وحضارتهم إنما هو التاريخ .

• • • — فردية سقراط ، ومجتمعه ، كانا عاجزين عن إجابته
وإبداع عبقريته لولا حركة التاريخ التي كانت قد بلغت بأثينا ، وبالفلسفة في
أثينا مستوىً عالياً يتيح ظهور مثل هذه الموهبة الشاخحة .

وآية هذا ، أن « سقراط » لم يكن يمثل مجتمعه . . بل كان أكثر
من ذلك ، يمثل الاستعداد التاريخي لهذا المجتمع .

أو بتعبير آخر . . كان يمثل الدور الحقيقي الذي يستطيع مجتمعه أن
يقوم به ، وإن لم يقم به فعلا لسبب أو لآخر .

ولكي نوضح هذا نضرب مثلا بجزيرة العرب في جاهليتها .

إن الشكل الخارجي لتلك الجماعة ، كان يبعث على الظن بأنها لا تصلح
لغير رعي الإبل ، وقرض الشعر ، وعبادة الأصنام ، ومعاناة الرياح
العاوية عبر الصحراء .

ومع هذا ، فقد كان استعدادها التاريخي الذي لم يكن منظورا
ولا محسوسا ، يؤهلها لأعمال باهرة سامقة . . ولم يكد الرسول عليه

(٤)

السلام يلبسها لمسات هادية حتى انطلقت أسرع من الضوء في تحقيق المعجزات . !! .

كذلك كانت أثينا . . . كان استمدادها التاريخي مختلفاً عن شكلها الخارجي ولقد أدرك هذا سقراط الذي وعى حركة التاريخ واستجاب لها .

صحيح أن مجتمعه هذا ، هو الذي أكرهه على نحو ما أن ينسحب من الحياة بجرعة من السم . . . بيد أن هذا الحكم نتاج الهوى الاجتماعي في أمة سقراط ، وليس نتاج الرشد التاريخي الذي ظهر فيما بعد ، وبعد أن أيقظه سقراط بموته أكثر مما كان يوقظه في حياته .

• • • — ونابليون كذلك ، ليس ثمرة شخصه ، ولا ثمرة مجتمعه .

بل هو الابن الشرعي للتاريخ .

قد يكون ابناً عاقاً ، فالتاريخ ينجب البررة والشريرين ولكنه على حال ، ابنه ، وثمرته .

والمنطق في توكيد هذا ، يسير هكذا .

لقد سجل نابليون انتصارات هائلة عُرف بها وعُرفت به . . . وكان ناس زمانه وبعد زمانه لا يرون فوق خشبة المسرح سواه .

ولكن هل كان نابليون قادراً على براعته تلك لو لم تكن حركة التاريخ معه . . . ؟؟ كلا .

لقد كان التاريخ هناك ينتظر نابليون — أي نابليون — . أي أن

حوادث الماضي كانت قد انتهت في مسارها إلى نقطة تسمح بل تستحث قيام مغامس من نوع نابليون . . والتاريخ كما ينبغي أن نعلم ، كالعالم . لا يعرف الخير والشر ، ولا يقول هذا طيب وهذا خبيث . . وإنما يعرف فقط ، هذا لازم لعماليات التطور ، أم غير لازم . ولقد كان رُوح العصر يهتف بواحد من طراز « بونابرت » ويُفتن به فتوناً شديداً .

كان التاريخ بحاجة إلى رجل يملأ أوربا ذعراً وقلقاً ، وينبث بعروشها وامبراطورياتها الباذخة ، ويعمم بأية وسيلة مفاهيم الثورة الفرنسية ، ويوقظ في الجماهير روح التمرد والرغبة في التغيير . ولهذا رأينا بعض البلاد التي وطئها غازياً تستقبله استقبال الفاتحين ، عن إخلاص وحب ، لا عن خوف ومُسايرة . لأنها كانت ترى فيه منقذاً كبيراً . .

تُرى هل يقدر « نابليون » أن يعود إلى عصرنا هذا ؟؟ . . أعني ، هل يستطيع أحدهما تكن مواهبه وقدرته على المغامرة وولمه بها أن يمثل دور نابليون اليوم ، يمشى في الأرض غازياً . . يفطر بدولة ، ويتعشنى بأخرى ؟؟ . .

كلا . . ولقد حاول هتلر أن يكونه ، فأنهى كزوبعة ضالّة . . ! !
لماذا ؟ . .

-- ٥٦ --

لأن روح العصر مختلف .. وحركة التاريخ تتطلب نوعاً آخر من الرجال ، ومن الأحداث .. وهي — مثلا — تؤثر اليوم « غاندي » واحد ، على مائة ألف هتلمر مجتمعين .. !

• • • — وماركس :

ما كان نبوغه الشخصي ، وما كان مجتمعه بقادريين على منحه هذا الدور الهائل الذي قام به لولا الحدث التاريخي .. ذلك أن التمزق الذي كانت تمنيه الرأسمالية ، كان لابد أن يجد من يكشف عن أسبابه الدفينة ، ويتنبأ له بمصيره .

آتخذ — الذي كان يرسل نذره ، وإرهاصاته ، مر به ويرسم له طريق العمل الذكي الواعي المثابر ر كس « علامة اجتماعية » تحمل سمات مجتمعه وبيئتها ب .. بل كان « علامة تاريخية » تشير إلى مقادير للتاريخ جديدة وسنك أن تأخذ دورها .

• • • — وبسارك :

ماذا كان نبوغه ، ومجتمعه ، سيمطيانه ، لو لم تكن الظروف التاريخية قد حددت ساعة الصفر للاتحاد الألماني .. وأسرت إلى « بسارك » بيماده ١٩٠٠

ولقد اعترف هو بهذا اعترافاً واضحاً في خطبة ألقاها في الريخستاغ الألماني ، قال :

— ٥٧ —

« ليس بوسعنا أن نتجاهل تاريخ الماضي ، ولا أن نصنع »
« المستقبل . . »
« وإن الناس ليبالغون في تأثيرى على الحوادث التي »
« عرفت — فقط — كيف أستغلها . . »
« ولكن لا يخطر ببال أحد أن باستطاعتي صوغ التاريخ »
« فما أنا بقادر على ذلك حتى بالاشتراك معكم . »
« صحيح أننا مما نستطيع مقاومة العالم، بيد أننا لانستطيع »
« أن نصوغ التاريخ وعلينا أن ننتظر حتى تتم حوادثه »

هكذا نضرب الأمثال لوعينا الإنساني حين يشغفه دور الفرد
فيؤمن به . ثم حين يشغفه دور الجماعة فيؤمن بها . ثم حين يشغفه دور التاريخ
فيؤمن به ، ومع إدراكنا الحق لدور الفرد ، والجماعة ، والتاريخ ،
وأيضاً مع احترامنا للوقفات التي وقفها التفكير الإنساني عند كل منها
الفرد ، والجماعة ، والتاريخ فإننا نريد أن نتخطاها جميعاً ، ونجاوزها . .
معانين أن صاحب الدور الحقيقي في كل تقدمنا وارتقائنا ، إنما هو الإنسان . .
أجل . . ليس هو الفرد . . ولا الجماعة . . ولا التاريخ . . ولكنه:
الإنسان .

وهنا يعود إلينا السؤال : وما الإنسان .. ؟؟

ولعل من الخير أن أعترف بالصعوبة التي أحسها وأنا أسور مفهوم هذا الإنسان الذي أعنيه .. ذلك أنني أحسُّه أكثر مما أعرفه .. وأستشرفه برؤيا الحدس ، أكثر مما أبصره برؤية العقل ولكن هذا لن يمنعنا عن السير معاً صوب اكتشافه .

وأود أن أذكر أولاً ، أن خلافتنا الفكرى حول دور كل من الفرد ، والجماعة ، والتاريخ ، إنما يتضمن الرغبة في مجاوزة هذه كلها إلى شيء أقرب إلى الحقيقة إن لم يكن الحقيقة ذاتها .. وذلكم الشيء هو الإنسان ..

فالحافز الحقيقي للذين يؤمنون بقيمة الفرد ، وينيطنون به البطولة ، إنما هو في الواقع ، تكريم الإرادة الإنسانية ..
والحافز الحقيقي للذين يؤمنون بالجماعة ، وينيطنون بها البطولة ، إنما هو تكريم التضامن الإنساني ..

كما أن الحافز الحقيقي للذين يؤمنون بالتاريخ ، ويضعون الزمام في يده ، هو تكريم التراث الإنساني ، والحركة الإنسانية .

فالإنسان هو الرؤية الحققة لنا في عالمنا الإنساني هذا ..

ونحن لانصاب بالقنوط من أمره ، واليأس من مستقبله إلا حين

تغيب عنا حقيقته

— ٥٩ —

وكأى من فيلسوف وعبقري تغشاه اليأس لهذا السبب .
فالأعريق حين رأوا التاريخ حلقة مفرعة ..

والرواقيون حين صاحوا في الناس : « لا تتوقعوا من المستقبل شيئاً » .. إنما ذهبوا هذا المذهب لأنهم لم يكتشفوا الإنسان ..
والفيلسوف الشاعر «جوته» حين يتنبأ بمستقبل لا يبدى الله فيه اهتماماً بالجنس البشرى ، ويرى من الخير أن يعيد الخلق من جديد ..
إنما يغلبه اليأس على هذا النمط ، لأنه لم يكتشف الإنسان

وأرسطو نفسه ، حين قال : «يا أحبائي .. ليس في الدنيا أحباب» ..؟؟
إنما قالها في ساعات غمٍّ عليه فيها حقيقة الإنسان
وكل الذين يعزلون الإنسان ، وينسَوْن مكانه بين صفوفنا ، وعالمنا .
كثيراً ما يفترسهم التشاؤم والقنوط
ومن سَجِب أن الذين واجهوا الحياة بأوفى حظوظ التفاؤل والثقة
والاقتدار من الأنبياء ، والرواد ، وقادة الحق والخير .. كانوا على وجدان
ذكي بحقيقة الإنسان .

هذا الإنسان كيف نتعرف إليه ..؟؟

هل هو نحن ..؟؟ أم هو شيء سوانا ..؟؟

أهو خارج عنا .. أم كامن فينا ..؟؟

— ٦٠ —

الحق أنى لا أريد أن أعطيه معنى تجريدياً ، يفقده وجوده المادى العظيم .
ولكنى كذلك ، لا أريد أن أحصره فى تلك المادلة الرياضية التى
تجمله حاصلها لمجموعة من الكربون ، والنتروجين ، والأكسجين ،
والهيدروجين ، والكبريت والملح ، والحديد . . ؟

وإنى لأبدأ تعرفى إليه بملاحظة تطورنا البشرى المائل

x x

• إنه - أعنى التطور - يمضى داخل سلوك مليء بالمتناقضات والعوائق .
ومع هذا تبنى نتائج دائماً ، كما لو كانت مقدماتها على حظ عظيم من
الدقة والتناسق ، وكما لو كان طريقها مهتماً متلاحباً مترعاً بالحوافز .

ونضرب لهذا مثلاً نعيشه الآن كما عاشه أسلافنا جميعاً فمجتة منا
الإنسانى ، يعانى من الأناثية فى كل مكان . .

الأفراد . يُفتن كل فرد بنفسه ، ويضع قائمة مطالبه من الحياة ،
كما لو لم يكن هناك آخرون ينبغى أن يكون لهم منها نصيب .
كل فرد ، لا يكفيه أن ينال حقه ، بل يريد ما ليس له بحق ، بل ،
وحقوق الآخرين جميعاً .

والجماعات كذلك ، كل أمة وكل دولة ، بهما زعمت لنفسها من
مُثل عالية . تنتجها بطريقة تلقائية صوب نفسها ، وشمار كل جماعة -
أى جماعة - هو « أنا أولاً : وأنا ثانياً ، والآخرون أخيراً »

— ٦١ —

وطبيعي أن ما تفضي إليه هذه الأنانية من أثرة ونزاع ، وحروب ،
يخرب الجهود الانسانية ، ويصيبها بشر ما يمزقها .

ومع هذا ، فالخاصل النهائي لكل تلك العمليات الرديئة التمسة ، هو
التقدم نحو الخير ، ونحو الحق ، ونحو المحبة ، والغيرية والسلام
أجل ، إن الطريقة التي يتحول بها الشر إلى خير لتبهرني ، وأستشرف
من خلالها الإنسان .

حين صاح « البابا إربان » عام ١٠٩٥ في مسيحي أوروبا « إن الله
يريد منكم أن تقاتلوا عن دينه » وقرع بصيحته هذه أجراس الحروب
الصليبية .

كانت صيحته ، وكانت تلك الحروب بكل أهوالها ، جسراً عبرت
عليه حضارة العرب والإسلام ، وحضارة اليونان التي كانت مع المسلمين
إلى أوروبا . وتحولت رزايا الحرب إلى مكاسب تفوق كل حسابان وتقدير ١١٠٠
كما كانت سبباً حاسماً ومباشراً في الإقطاع هناك

و حين اكتسح أوروبا عام ١٣٤٨ وباء الموت الأسود ازدرد الآلاف
والملايين في شراهة ماحقة . . ولكنه سرعان ما تكتشف عن خير
منه . فقد خلق الأحداث التي كانت سبباً مباشراً في إنهاء عهد الرقيق
ويدفع كهنة أورشليم بالمسيح إلى صليب كبير فيكون هذا إيذاناً ببدء
مجده وخاود كلماته .

— ٦٢ —

ويأتمر الأشراف في قريش بمحمد ليقتلوه .. ويضطرونه للرحيل عن
بلده وداره .. فتتحول هذه المحاولة الظالمة القاسية إلى تاريخ يتسع لخضارة
تملاً ما بين الشرق والغرب ، وتدوى في جنباتها دعوة القرآن ..

هنا ، الملح وجود الانسان ، وأتصوره مضموناً حياً لكل إمكاناتنا
الخيّرة ، ولكل أغراض وجودنا — يقود خطانا ، ويصطنع من آفاتنا
مزية ويميراجاً .

* *

● — وأبدأ تعرّفني إليه كذلك بملاحظة خيالنا ..

كل خيالنا المضحكة عبر الأجيال ، تحولت إلى واقع رشيد أكيد
تخيلنا يوماً ، أن نظير .. واصطنع بمضنا في سذاجة أجنحة ، وحلق
بها بضع ثوان ثم هوى ..

وضحكنا يوماً ، وسخرنا وتندرنا .. وإذا الخيال الساذج يتحول
إلى واقع ياله من واقع .. !!

وتخيلنا أن نركب البحر ، وننخذ طريقنا فيه سرّياً ، فألقى بمضنا
في مجرى ماء بجذع شجرة واحتصننه ، وإذا بجذع الشجرة يصير
سفننا كالجبال ، ويسخر البحر لنا ، كأنه يابسة ذلول !!

وتخيّلنا « المدن الفاضلة » فإذا هي تأخذ طريقها إلى الواقع على
أتم نسق ، وفي أحسن تقويم ..

وفي كل شيء كان خيالا بعيد المنال .. ثم صار حقيقة ، أسأل نفسي :
كيف حدث هذا ، وما معناه .. ؟؟

ومن الذي كان يتخيّل .. نحن .. أم الإنسان .. ؟؟
وأتصور الإنسان كما لو كان « المضمون الحى » لكل تجاربنا
وتصوراتنا ..

أجل . أتصوره قد جاء الدنيا مُزوداً بكل تصوراتهِ .

وأحسب الأمر سار على هذا النمط .. فحين ودّع حيوانيته ، وبدأ عصر
إنسانيته ، كان يحمل معه حصيلة كبرى من التجارب والمشاهد والممارسات
المهائلة المعقدة التي شهد تركيبها جزء فجزءاً .. والتي التقطها جميعاً
« لآشعورهُ » . واحتفظ بها في قراره المكين ..

وإنّ أقصى نقط انحطاطه في الماضي . ، لتشير إلى أقصى نقط كماله
في المستقبل .. وإنه ليدفع كل القوى التي ملء يديه لتحقيق نهج يكافئ
يكون كاملاً ومفصلاً في فطرته لآوعيه ، وإن كان عقله الواعى
يكتشفه شيئاً ، فشيئاً . لقد عاصر الإنسان قبل أن يمي نفسه ، كل
أشياء الطبيعة حواليه ، رآها ، وهى تتكون ، وهى تنحل . وهى تركيب ،
وبصرٍ بخصائصها ، واستقر كل هذا في باطنه .. فلما بزغ فيه العقل

— ٦٤ —

تحرکت فطرته لتمبر عن نفسها .. بل لعلّ العقل ذاته كان الأداة التي
فجرتها طبيعته المزدحمة الملامى لتمبر به عن نفسها ، ولينقل إلى العالم
الخارجي أسرارها ومضمونها .

فإذا بسطنا أيدينا اليوم إلى عُشب وقلنا : إنه شفاء للكبد ، فليس
هذا إلا لأن الإنسان الكامن فينا قد زامل هذا العُشب من عهد قديم .

وإذا أشرنا إلى شلال يتحدر ماؤه الهادر الصخّاب ، وقلنا :
سنؤكّد من هذا التدفق كهربياً .. فأيضاً ؛ لأن الإنسان العائش فينا أبصر
هذا المشهد على الطبيعة ذات يوم وأبصر البرق والضيء يندفمان من
الأمواج المتقاذفة في عُرام وجبروت ..

أما عن الطائرات ، وحقنا في جو السماء بأجنحة ،
ل تناهت في البساطة ، فسيكون وراء هذا ، الإنسان الذي
... غبر تطوره السحيق زواحف ترحف على الأرض إلى جواره ،
ونجاة ، وبعد محاولات — في عقله الباطن كل أسرارها — رآها تبسط
جناحين ، وتذهب صاعدة في السماء .. ؟؟

أى أن ذاكرته تسترد اليوم على نحو ما ، بلايين المشاهد والتجارب
التي عاصرها وعاشها مع الطبيعة خلال تطوره المديد المعن في الطول
والبعد .. ويتولى عقله الواعي بطريقة ما ، فضّ الأبهام والغموض عن
تلك التجارب الراسية الراسخة ...

— ٦٥ —

وقبل أن ننصرف عن هذه الكلمات ، كما لو كانت وها طريقا .
علينا أن نتذكر حقيقة مماثلة تتكرر كل يوم ، وراها العلم بعينه ويلبسها
بيده ..

تلك هي الطريقة التي تتطور بها الأجنة في الأرحام .. فوqائع
التطور البيولوجي للانسان ، والتي استغرقت بلايين السنين منذ كانت
الحياة خلية .. حتى صارت إنساناً .. هذه الوقائع كلها يركزها
الإنسان ، ويستعيدنها ويكررها مع كل جنين .

فالجنين — كما يقول علماء البيولوجيا — يبدأ خلية ، ثم يأخذ
شكل الحلقة . ، ثم هيئة السمكة حيث يتنفس بخياشيمه ، لا برئتيه ..
ثم يصير حيواناً ذا أربع ، له ذنب صغير ، ويفطى جسمه الشعر .. ثم
يصير إنساناً .. !!

نفس المراحل التي تقلب الإنسان خلالها في بلايين السنين ، يستعيدنها
في ستة أشهر لا غير ، وبأصرار عجيب لا يفلت منه جنين ..

وهنا ألمح الانسان الموجود في « لا وعيه » يفضى إلى الانسان
الموجود في « وعيه » لينجبا مآ ، الانسان المتفوق على وعيه .. !
نحن نقول : إن العلم يغير وجه الأرض ، ويميد كشف الحياة ..
وهذا حق .. بيد أن العلم نفسه لا يوجد إلا بمقدار ما يريد الإنسان ..
ولا تسرى الحركة في آلة إلا بمقدار ما يضع الإنسان فيها من حركة ..

— ٦٦ —

• — وأبدأ تعرفي إلى الإنسان كذلك ، بملاحظة العبقرية الإنسانية التي لا أجد لها سبباً أي سبب ، لا في حركة التاريخ ، ولا في تيار الجماعة ، ولا في إمكانية الفرد

انظروا ...

« بهوفن » الأصم ، ينشئ وهو فاق لأهم أدوات الفنان ، ألماناً ، تتخطى كل مناسيب العبقرية والخلود .. !

و « غاندي » .. ذلك النحيل الضامر ، العادي في ثقافته ومظهره ، يتحوّل بمرّيه ومغزله إلى قوة لا تغلب .. !

و « الحلاج » يحتضن عقيدة ، يُصاب من أجلها وتقطع أوصاله على خشبة الصلب ، وتُبتَر أعضاؤه عضواً عضواً .. ثم لا يتخلى عن عقيدته فحسب بل يبارك قاتليه ويقول عبارته الماثورة : « اللهم اغفر لهم فإنهم ما فعلوا بي هذا إلا غيرة على دينك » . !

و « هنري توماس باكل » الذي قضى عمره كله عابلاً مؤثّقاً ، يتعلم سبع عشرة لغة ، ويفكر بها جميعاً ولا يستطيع — كما وصفه هكسلي — أن يرفع رأسه من كثرة ما كانت تحمله .. !

و « جماعة بدائية من العرب » تقطن صحراء قاحلة تحتضن ديناً رَشِداً ، وتنشئ به حضارة عجيبة .. !

و « شعب » مقررور ذليل جائع في أصقاع روسيا القيصرية ..

يتحوّل بصورة أذهلت « لينين » نفسه مهندس الثورة ومنظمها ، إلى طوفان بشري داهم يشبه الأساطير

هذه العبقرية التي تظهر هكذا مكتملة في الأفراد وفي الجماعات . .
من وراءها . . ؟ إنه الإنسان . .

سنجد وراء الانطلاقات الكبيرة للجماعات أسباباً تاريخية قطعاً . .
ولكن عبقرية الانطلاقة المتمثلة في امتلاكها لكل عوامل الفوز ، شيء
لا يمكن أن يجيء إلا من إرادة الإنسان . .

عندما قيل لـ « لينين » إن ثورة عاتية ، ملأت أرجاء روسيا ،
لم يصدق ، وظن في الأمر خدعة . . ذلك أن التاريخ يُزجى أسباب
الثورة ، أو الحركة الاجتماعية الكبيرة . أما العبقرية التي يُقيمُ بها العملُ
التاريخي نفسه أفتاتها الإنسان . .

والظروف الخارجية لا تصنع كل شيء . .

والعبقرية الإنسانية التي أقول إنني أتعرف بها على الإنسان ، تدعم هذا

فالثقل الحاسمة في تاريخنا تتمثل في بضع قوانين هامة اكتشفناها

● كروية الأرض وحركتها . .

● قانون الجاذبية ...

● نظرية النسبية ...

● نظرية أصل الأنواع ...

هذه الكشوف غيرت معالم تفكيرنا ، وحددت طريق حضارتنا ،
وأسهمت في كل ما جاء بعدها من إبداع واختراع ...

فهل نبحت عن سرها في الظروف الخارجية أياما كانت هذه الظروف ... ؟
حاولوا إن شئتم ... أما أنا ، فلا أجد سرها في شيء سوى الإنسان
وبعد هذه الأمثلة والتهويمات ، أستطيع أن أصوغ الكلمات التي
تُعرف هذا الإنسان وتصور مفهومه

أستطيع أن أقول :

إنه شيء يشبه « المطلق » في عاله ، وأرضه .. .

إنه « الوعي الكامن » في نوعه كله .. .

أنه شيء يشبه عالم « المثل » عند أفلاطون .. .

فالإنسان في هذه الأرض ، هو المثال : . والأفراد ، والجماعات ،

والتاريخ .. . كل هذه ، هي الصور والانعكاسات .. .

وهو بداية التطور الحي كله ، ووقته .. .

بدايته ، لأن « الأمييا » التي دبت فيها الحياة لأول مرة على ظهر

الأرض ، كانت - على نحو ما - تتضمن الإنسان .. .

ووقته . ، لأن الإنسان عندما نَحَى جانبا كل الكائنات الحية التي

كانت تمايشه وتسابقه ، وتفرد بالسيادة ، تمثلت فيه قمة التطور الحي في

كوكبنا هذا .. . بيد أنه « قمة » نامية . لأنها حية .. . وإنه لذهاب

إلى أعلى دوماً حتى يحقق تبعات الأمانة التي حملها
لقد بدأ قانون الجاذبية مع بدء السموات والأرض والكواكب ..
ولم نكتشفه نحن إلا منذ أقل من ثلاثة قرون .. ولم يكن جهلنا به
يعني انعدام وجوده ، كما أن جهلنا به لم يعطل عمله ..
والانسان هو (القانون) الذي يمكننا نحن البشر ، وينظم حياتنا
الإنسانية ، ويرتب مقدماتها نتائجها .
ولقد قلنا إن الطبيعة الإنسانية لم يكتشف منها إلا القليل ..
ولسوف نكتشف الانسان فينا شيئاً فشيئاً حتى يتجلى ذات يوم كماله
هذا هو الإنسان ، بالنسبة لعالمه ، وأرضه ..
أما عن صلته ببارئته وخالقه ، فعلينا أن نتقبل في حُبور كلمة الدين فيه
إنه ابن الله ، فيما عَبَّرَ المسيح ..
وخليفة الله ، فيما قال محمد ..
وإن الإيمان بهذا ، لا ينقص من قدر الإنسان بل يرفعه عالياً ..
فالمواطن في دولة عظيمة ، يزهو بأنه من رعاياها ومواطنيها ،
ويستمد من عظمتها ثقة واقتداراً .
والإنسان ، ليس « مواطناً » في عالم الله وحسب . بل هو
خليفته العظيم .

(٥)

— ٧٠ —

وهذا الإنسان ، هذا « القانون العميم » هو أصل القوانين
الموضوعية في دنياه ، ومن ثم فهو فوقها جميعا ، ولا يتحكم فيه
منها شيء . .

وحسبنا أن نسأل أنفسنا :

لولم يوجد الإنسان على الأرض ، أكانت القوانين الاجتماعية
ستوجد . . ؟؟

بالبداهة ، لا . .

كانت القوانين الطبيعية ستمضي في طريقها ، والعمليات البيولوجية
ستستأنف سيرها . . أما القوانين الاجتماعية ، فمن كان سيوجد لها ،
لولا الإنسان . أو لولا بديله . . ؟ !

وهذا يعني أن الإنسان سيد وجوده ؛ وسيد تاريخه . .

لما معنى أنه سيد وجوده . . ؟

ولما معنى أنه سيد تاريخه . . ؟

لنبداً بالأولى . .

قلنا : إن الإنسان يحمل طبيعة ملأى بالتصورات والأسرار . .
وأنه أخذ على كاهله ، أن يخرج خبء الطبيعة حوله .

وهو بهذا ، لا يعمل بقوى سحرية . بل بقوى منظورة واعية . .

وقلنا : إنه ليس معنى مجردا . بل هو مضمون حتى الشكل

— ٧١ —

إمكانياتنا وتسامينا . . . وذات واعية حالة فينا جميعا أفراداً وجماعات .
وكل عمل من أجل تكريم الإنسان ، وبعث فرص اكتماله .
لن يكون له موضوع سوانا ، نحن البشر . .
وكل إساءة إلى فرد إنساني واحد ، تعنى الإساءة إلى الإنسان
في مجلى من مجالى ظهوره .

والإنسان الميم وجهه شطر الكمال العظيم ، لن يبلغ هذا إلا بقدر
ما تبلغ الجموع البشرية من نبوغ عقلى وأخلاقى ، واجتماعى ، فكلما
كثرت الجموع الممتازة المتفوقة المسيطرة على مصيرها ، كثرت معها
فُرص الإنسان فى الظهور ، وقرب يوم اكتماله .

وسيادة الإنسان على وجوده ، هى السبيل لتحقيق هذا النبوغ
للجموع .

والوجود الإنسانى مُحكم البناء بشكل فذ ، وهو يرفض التصدع
والانفصال . .

إنه ليس حلقات منشورة ، ولا ذرات تائهة . بل وحدة هائلة
مكتملة يتوسطها الإنسان .

فالفرد فى حقيقته ليس فرداً . . وإنما هو « تركيب اجتماعى »
أو بتعبير أهدى سييلا ، هو « تركيب إنسانى » .

ينقل لنا العلامة الأستاذ « أميل برييه » عن العالم النفسانى

الكبير « بلدين » هذه الفقرة مدلا بها على أن الفرد لا يعرف نفسه ، ولا يشعر بها إلا عن طريق شعوره بالمجتمع أولا . . . يقول (١) :

« لقد اكتشفنا أن الطفل لا يشعر بوجوده الذاتي »
« إلا بعد معرفته بشعور الآخرين ؛ فهؤلاء يبدون »
« في نظره مركز الردود وأفعال ترتبط بمحاجاته الخاصة . . »
« وهم النموذج الذي يتخذه أساساً لتصور شعوره »
« الخاص . . . وبعد هذا بفترة طويلة ، يصل الطفل »
« إلى مرحلة يتخيل فيها شعور الآخرين طبقاً لما يشعر »
« به في ذات نفسه . . . »

كذلك ينقل لنا عن عالم آخر هذه الفقرة :

« إن الامتزاج بين الشعور بالآخرين والشعور بالذات »
« في نفس الفرد ، يستمر طوال الحياة . . . وإنما نعدل »
« أفعالنا بناء على تلك الفكرة التي نكونها لأنفسنا »
« عن آراء الآخرين فينا . . . »
« فشعورنا الذاتي ، يشبه مرآة تنمكس فيها صور »
« الآخرين . . . »

(١) كتاب « اتجاهات الفلسفة المعاصرة » .

- ٧٣ -

فإذا كانت صلة الفرد بالجماعة تأخذ هذا الترابط الوثيق . . . ،
فإن صلة الجماعة بجماعة أخرى تقوم على نسق مماثل .

أى أن المجتمع - أى مجتمع - ليس دائرة مغلقة ، ولكنه
موجة في تيار . . . وكل جماعة من البشر في زمان ما ، ومكان ما . . .
إنما يتاقون من التيار البشرى كله تأثيرا مماثلا لهذا الذى يتلقاه الفرد
من الجماعة .

من أجل هذا آثرنا ألا نقول مع علم الاجتماع إن لكل فرد
« تركيباً اجتماعياً » وقائنا : إن لكل فرد « تركيباً إنسانياً » . . .

وحين أكون كفرد ، مركباً هذا التركيب الإنسانى ، وأهل
ميراث الإنسان الذى هو حقيقتنا الكبرى فإن هذا يكشف عن الخيرية
العظيمة التى أحملها بين جنبي . . . هذه الخيرية التى يشير إليها الحديث
النبوى الفائل : « كل مولود يولد على الفطرة » . . . بيد أن فرديتى
هذه لا تعنى الانمزال ، ولا الوجود الشخصى ، لأننى تركيب « لاعنصر »
ونحن فى الحقيقة ، تتسلم ذواتنا من النوع ، فى ذات الوقت الذى
تتسلمها فيه من آباءنا وأمهاتنا . . .

أجل . . . إن الآباء والأمهات ، يمنحوننا خصائصنا الشخصية . . .
والنوع ، يمنحنا خصائصنا النوعية أو البشرية . . .

وفى تكوينك الذاتى ، وأنت نطفة ، أدلى النوع بدلوه ، واقتحم

نسيج البذرة الأولى واستقر فيها . . فإذا ذهبت تعيش في وجود منفرد :
ففي أي وجودٍ يك ستعيش .. ؟؟

وجودك الشخصي . ، أم وجودك الكلي . . ؟؟

إنه قد يبدو لك أنك تحيا في وجود حقيقي حين تمنح إلى فرديتك ،
وتخرج خبء ذاتك الواحدة . . بيد أنك آتئذ ، لم تزد في الواقع على أن
أحدثت انقساماً في ذاتك ، إذ حاولت أن تجعل مركز الثقل
في أحد شقيها .

أجل . . إنك آتئذ تحاول أن تشق الشعرة نصفين . . !! وإذن ،
فكان كل فرد من الوجود ، هو الوجود الإنساني ، لا الوجود الشخصي . .
لأن الأول فضلاً عن كونه يتضمن الثاني ، فهو — قبلاً — مجالنا
الحيوي الأوحـد .

لا بد أن نصل كل خطوطنا بالإنسان ، ونكون دوماً على استعداد
لاستقبال مشيئته والسير معه -

فالتحير الإنساني ، كامن في النوع الإنساني ، وكلما وثق الفرد به
بوشأجه ، ازداد غرماً منه ، وانتفاعاً به . .

ليس معنى هذا أننا نقول للفرد . ، لكي تُكوّن نفسك ، امتنع
عن أن تُكوّن نفسك .

إنما نقول له : امتنع عن أن تُكوّن بعض نفسك واحذر أن تنشق
على ذاتك ..

— ٧٥ —

إن في تكوينك « خلايا » ورثتها لك البشرية كلها ، وهي تأخذ بك دائماً إلى موكبها .

وتجربتك التي تبدولك فردية .. هي قبل هذا اجتماعية ، لأن المجتمع أسهم في صنع ظروفها .. ، وإنسانية ، لأن طبيعتك التي مارسها تحمل أقباساً من التراث الإنساني جميعه .

ولندرك جيداً ، أنه في الوقت الذي نحاول فيه الروق من المضمون الإنساني العام ، أملا في العثور على أنفسنا ، نفقد أنفسنا .

إن حياة الجنين وأطوارها في الرحم تؤكد أن كل فرد يحمل الطابع الإنساني كله مركزاً ، أروع تركيز .

فإذا كان الإنسان يكرر تطوره البيولوجي في كل فرد على النحو الذي سبق ذكره ، فإنه أيضاً يُحْمَل كل فرد تراثه ، ويفرغ فيه طبيعته . ويجذبه إليه بأوثق العرى حتى لا يكون شاة قاصية تتخطفها الذئاب . وحتى لا يدغدغه القلق الوجودي ، ولا يرفع راية التسليم أمام مشكلة العدم ، وحتى لا يمجز ولا يفتنى ... !!

الوجود الإنساني إذن ، هو طائفا الأمتل والحق . وبه يكون الإنسان سيد وجوده . وهذا الوجود لا يفتنى نفسه . بل تخلقه . ولا يجرى رخاء ، بل نعمانيه . بيد أسما مائة انبثاء الظافر الذي بره طبقاً فوق طبق . لا مائة الأمتل . التي تهاوي أقباسها فوق رأسه .

— ٧٦ —

وفي الوجود الإنساني الذي يشمل الحقيقة الخارجة كلها ، لاتَجِبُهنا
خيبة الرجاء في بحثنا عن الوجود لأن فرص تحقيقه وافرة وباهرة .
وأيضاً ، لا نخشى العدم ، لأن القضية هنا ليست قضية فرد منفصل
عن حقيقته . بل قضية الإنسان في دوره العظيم الذي لا منتهى له .
إن الانكباب على الوجود الفردي ، عزل للجهد البشري ،
واحتباس له في قوقعة معتمة . بينما الحياة داخل وجود إنساني تزكو
القرء ، وتتلأ يديه بقدره لا حدود لها . وبه وحده يكون الإنسان
سيد وجوده .

x x

والآن ، ما معنى أن يكون سيد تاريخه . . ؟
إن المفهوم التقليدي للتاريخ قد ولى مديراً .. ولم يعد التاريخ مجرد
سجل للأخبار ، والبطولات ، والجرائم .. كالم يعد ذلك المسرح
القديم لناورات السياسة وغزواتها ؛
إن التاريخ بمفهومه الصحيح ، هو الحركة الإنسانية والنشاط
الإنساني قاطبة . : هو الوعي الإنساني في تحركته الدائبة .
وقوانين هذه الحركة تقع تحت سيطرة الإنسان وليس العكس . .
وكل مرحلة تاريخية تأخذ مكانها خلال العمل الإنساني هي مخلوقة

للإنسان ، وليست خالقة .

والحركة التاريخية، ليست أكثر من مظهر زمني للحركة الإنسانية .
والحدث التاريخي ، لا تُنجمه الضرورات التاريخية ، بل الضرورات
الإنسانية . . لأن الإنسان هو القانون الثابت الذي يجعل التاريخ عملاً
واعياً وهادفاً .

ومن ثمّ فالإنسان لا يخضع لأية حتمية تاريخية إلا إذا اعتبرنا :
التاريخ قدراً إنسانياً ، يصوغه الإنسان نفسه ، ثم يرتبط به عن
طريق قوانينه التي يلتزمها ، ويحترمها . . أما دون هذا ، فالتاريخ
كعمل إنساني ، هو الذي يخضع لخصائص إنسانية تقتضيها طبيعة
الوجود الإنساني ، ووظيفته .

وإذن فالتاريخ عندنا — لا يمثل التطور التدريجي لفكرة الحرية

كما يرى « هيجل »

ولا يمثل التطور التدريجي لعلاقات الإنتاج . ، كما يرى
« ماركس » . .

وإنما يمثل التطور التدريجي لظهور الإنسان . .

فالإنسان يُخرج خبثه ، ويحقق ذاته ، ويسير عبر الزمن بآماله وأعماله
لينجز أغراض وجوده التي إن كان لها ، منتهى فهو بعيد . جدُّ بعيد .
وهذه الرحلة الكادحة الداهمة التي يقطعها خطوة خطوة .

هذه الرحلة بكل علاقاتها ، وعلماها ، ونتائجها ، وحركتها ، وإصرارها
هي التاريخ . .

والتاريخ إذن ، ليس قدراً طارئاً ومفروضاً على الإنسان . . وليس
حتمية غيبية تتحكم فيه بل هو وعيه المدروس ، وعمله الحكم ، وحركته
المنظورة .

يقول ماركس وأنجلز في مؤلفهما « الأسرة المقدسة » . (١)

« يقول المثاليون صنع التاريخ كذا . . وسوف يحكم »
« التاريخ بأن . . والتاريخ لا يرضى بكذا . . »
« على حين أن التاريخ لا يصنع شيئاً ، ولا يريد شيئاً ، »
« وهو يرضى بكل شيء . . وعلى حين أن الإنسان هو »
« الذي يصنع ، ويحمي ، ويريد ، ويناضل . . . »
« والتاريخ لا يستخدم الناس لغاياته الخاصة . . . »
« والتاريخ لا يمدو أن يكون الإنسان الذي يتابع أهدافه »
« وغاياته . . . »

هذه كلمات فاصلة فيما نحن بسبيله ، وكل شرح لها فضول وتكرار .
وإن تحرير الوعي الإنساني من الحتمية التاريخية ، وتحريره من
الحتميات جميعاً ، ليشكل ضرورة قصوى .

(١) كتاب « كارل ماركس » تأليف لوفافر

وكما وضعنا في اعتبارنا ، أن الإنسان وحده — في أرضنا
هذه — هو القِيَمَة .. وكل ما عداه مما نعتبره قِيَمًا ، ليس أكثر من
تعبيرات ملاءمة تعكس حقيقة الإنسان ، وجوهره .

أقول كلما وضعنا هذا في الاعتبار ، ربحنا الإنسان ، وربحنا أنفسنا ،
وأفردنا في دورنا حظاً أكبر من الفهم ومن الذكاء ..
قد أبدو مبالغاً في تمجيد الإنسان .. ولكني لن أكون مبالغاً
في تصوري لحقوق سيادته .. هذه الحقوق التي كلما ازداد ممارستها لها ،
ازدادت سيطرته على بيئته ، وفقدت الظروف الموضوعية قدرتها على
التحكم فيه ، وفي تاريخه ..

وحقوق السيادة هذه ، تقتضي أول ما تقتضي أن يتبوأ الانسان
المكان الأول والأعلى بين شتى الظروف المستبعدة ، والتناقضات المتداخلة ،
وأن يكون زمام المبادرة في يده دوماً ، وفي غير تحفظ أو شروط .

وهذا ليس أمراً نمثه عليه ، ولا تبرُّعاً نُسقطه في كفه .. بل هو
حقه الطبيعي الصميمي ، الذي لا يشكل عرضاً من أعراضه .. بل جزءاً
من صميم جوهره ، وصميم ذاته ..

يجب أن يعلو دائماً ويسود ، ذلك المبدأ القائل « لقد خلِق
السبت من أجل الإنسان .. ولم يخلق الإنسان من أجل السبت » ..

— ٨٠ —

فكل أشياء حياتنا الإنسانية .. وكل القوانين الاجتماعية ،
والظروف التاريخية ، كل هذه جُمعت للإنسان ، ولم يُجعل الإنسان لها ..
وإذن ، فلا ينبغي أن يُضخى من حقوقه ولا من حرّيته ، ولا من
سيادته بشيء لها ..

هكذا نتصور سيادة الإنسان على وجوده ، ونيادته على تاريخه .
ومن خلال سيادته هذه ، نبصره وهو يشيد حضارته ،
ويؤسس عالمه .

فلا إنسان كما قلنا ، هو مادة حضارته ..
ليست الأفراد ، وليست الجماعات إلا بمعنى أنهم مجلّي ظهور الإنسان
ومركز وجوده ..

لقد قامت حضارات كثيرة أسميناها بمناطق نشاطها ..
حضارة الاغريق ، والرومان ، وأشور ، والفرس ، والمرب ،
والفراعنة . . .

ونقول اليوم : إنها بادت .. وإنها لكذلك فعلا ، لو كانت من
عمل طوائف وجماعات ..

أما الحقيقة ، فهي أنها لم تَبِدْ ولم تفن .. ولكنها تحولت
ونمت ، وتطورت ..

ذلك لأنها من عمل الإنسان . والإنسان صامد ، ونام ، ومتطور
ومجالى تلك الحضارات جيماً من عمران ، وكشوف ، وصناعة ،
وعلم ، لم يدركها المدم وإنما تطورت وصعدت ..

فتحنيط الموتى وعالوم الفلك ، وفن العمارة في حضارة الفراعنة .
وكشوف الطب ، والكيمياء ، والطبيعة في حضارة العرب ..
والفلسفة ، والديمقراطية ، والفن ، في حضارة الاغريق .
والقانون ، والعمارة . والأدارة ، في حضارة الرومان .
ومثلها في حضارة آشور ، والفرس ..

والفلسفة ، وصناعة الورق والبارود في حضارة الصين - كل هذه
لم تَمُتْ ، وإنما تطورت . لأنها تسير عبر الإنسان ، وتتطور خلال
مصارفه الصاعدة .

لقد أعطاه الله طبيعة مُطِيعَة ، باحت له بأسرارها ، ووضعت نفسها
وقوانينها في خدمته .

بل لقد سخر الله له الشمس والقمر والنجوم مُسَخَّرَاتٍ لأمره ..
ولهذا ، فهو - أي الانسان - أحكم وأفطن من أن تضطرب

-- ٨٢ --

الأمور في يده .. أو تنهاوى عمارته وحضارته

إنه لا يعمل بقوة ساعده . فلو كانت قوة المضلات هي الفيصل
لسبقته الحيوانات المهولة التي هي أشد منه بأساً ، وأوفى قوة .
ولا يعمل بكثرة أعداده .. وإلا لسبقته أيضاً الحيوانات والحشرات .
ولكن بطل الحياة هذا .. الذي شق صفوف جميع الكائنات
في كوكبه . ، وانطلق من بينها صاعداً .. راشداً .. ماجداً ..
إنما يعمل بأمن ما وهب ، وأفضل ما اعطى ..

أتعرفونه .. ؟؟؟

إنه عقله ، وفكره ..

ألا وإنه لحتم علينا أن نقف معه في فكره ، لننظر ، ونفقه ، ونعرف .

فلنعمل ذلك الآن ..



الإنسان سيد فكره

حبا الإنسان طويلا على يدي بارئه . . . وتلقى النفخة الكبرى من
روح ربه ، وبزغ عقله ووعيه ، فأعان الله رُشدَه ، إذ رآه يتقبل في شجاعة
وغبطة ، الأمانة التي عُرِضت من قبل على السموات والأرض فأبَيَّن أن
يحملها ، وأشفقن منها . . .

ومن ذلك الحين صار الإنسان سيد كوكبه . . . وكتب على نفسه ،
أن يحول أحاسيسه الغامضة ، ومبهماتهِ الباطنة إلى وعي ، وحركة ،
ومستقبل .

كتب على نفسه أن يحول غرائزه الحيوانية إلى حاجات إنسانية . . .
كتب على نفسه أن يحول أسرار الطبيعة المضمرة إلى عالم يكتشفه
ويشيدُه .

وامتلك -- على حد تعبير هيجل -- عريضة خلق ذاته . . . ومنذ
وَعَى نفسه ، شغله أمران ، كان لا بد أن يشغلاه .
أولهما : معرفة حقيقة جوهره ومصيره .

وثانيهما : السيطرة على العالم الخارجي وتسخيره .

ولقد سبق أن قلنا : إنه عاصر الطبيعة ، ولَقَفَ مشاهدَها ، بغيرِزة
واستودعها عقله الباطن . . . ولما بزغ وعيه ، وأنحلت عقدة لسانه
بدأ يترجم دخيلته العميقة ، وينقلها . . .

بمض تلك التجارب والمشاهد ، استقرت في أعماقه مِينة ميسرة . . .

(٦)

— ٨٦ —

فلما أراد أن يستعيد لها ظهرت الأداة المناسبة ، وكانت — العلم ..
وبعضها كان مبهماً وغامضاً ، يحتاج إلى بث الأسئلة الكثيرة ،
وتقليب وجوه الاحتمال والنظر .. . وظهرت الأداة الملائمة لهذا ، وكانت
— الفلسفة .. .

وبعضها كان خارقاً ومعجزاً .. . وظهرت الأداة الملائمة له
— وكانت — الدين .

وعن طريق اللغة ، مضى الفكر الإنساني يملأ كل هذه المجالات
ويغذيها .

وبالدين والفلسفة ، شرع يحاول معرفة جوهره ومصيره ..

وبالعلم ، مضى يسيطر على العالم الخارجي كله .

بهذه القوى إذن — الدين ، والعلم ، والفلسفة وما انبثق منها ،
كالفن ، واللغة ، والأدب — يمبر الفكر الإنساني عن ذاته .. .
تماماً .. . مثل الطاقة في الطبيعة تعبر عن نفسها بقوى كثيرة كالكهربائية ،
والمغناطيسية ، والكهرومغناطيسية ، والحرارة ، والإشعاع .

وكما أن هذه القوى جميعاً ، ليست في التحليل النهائي لها سوى
الطاقة نفسها .. . فكذلك القوى الفكرية ليست في تحليلها النهائي
سوى الفكر ذاته .

ونحن نعلم بالفكر هنا — التجربة كلها التي عاشها الإنسان عبر

تطوره الطويل ، ولا يزال يمشيها بكل ما فيها من لا شعور ، وشعور ، وإدراك ، وإلهام .

* * *

ولكن ، ما معنى أن الإنسان اكتشف الدين ؟
معناه أنه اهتدى إليه ، ذلك أن اكتشاف شيء — أولاً — يعني سبق وجوده .. فاكتشاف الجاذبية ، وحركة الأرض يعني أننا لم نخلقهما ، وإنما اكتشفنا وجودهما ..
ومعنى اكتشاف الإنسان الدين ، اكتشاف حاجات دينية عميقة في نفسه ، ورثتها وأنجبها أحاسيسه العارمة المحتشدة خلال تطوره .
وحين نبصر جيداً ، هذه الحاجات : نرى أن الذين يدعون الوجدان البشري لنفض يده من الدين على خطأ كبير .
ذلك أن الدين ، ليس هو تلك الطقوس ، والشاهد ، والشعائر فحسب إن هذه كلها هي الشكل الخارجي للدين .
أما لباب الدين ، وحقيقته ، فهو التطلع إلى الانهائي .. أو على حد تعبير « روبرت سبنسر » :
« الإيمان بقوة لا يمكن تصور نهايتها الزمانية ، ولا المكانية ، هو العنصر الرئيسي في الدين » ..

والإيمان بهذه القوى .. أو على الأقل ، الرغبة في التعرف إليها ،
شيء لا يتكافئه الإنسان ، وإنما ينبعث تلقائياً من تجربته ونفسه ..
والعلم في كثير من انتصاراته لا يزيد هذا الإيمان ، أو هذه الرغبة
إلا تشبثاً .

فهو مثلاً — أعنى العلم — يستطيع أن يجمع المواد التي يتكون
منها الكائن الحي ، ويؤلف بينها .. ولكنه لا يستطيع أن يبعث الحياة
في خلية واحدة .. هكذا يقول علماء البيولوجيا أنفسهم . ١١
وهناك أعداد هائلة من الأسرار المريعة التي تختفي وراء الحركة
العارمة للطبيعة ، وللكون ..

ولذا .. فالدين الذي هو تطلع دائم إلى اللانهاى .. وان شعور
الدينى الذى هو الإحساس بحاجتنا إلى التعرف بهذا اللانهاى . سيظلان
على رأس دوافعنا جميعاً ..

ووصفنا الدين بأنه قوة فكرية ، لا ينقص من دوره شيئاً ..
وحتى إذا أخذناه حسب تعريف الفلاسفة الإسلاميين له بأنه
« وضع إلهي يرشدنا إلى الحق في الاعتقادات . وإلى الخير في السلوك
والمعاملات » ..

فليس ثمة بأس في أن تكون نقطة انطلاق هذا الوضع الدينى هو
فكر الإنسان .. وإلا فلماذا اختار الله رسوله من الناس أنفسهم . ولم
يخترهم من عالم آخر .. ؟ ؟

— ٨٩ —

ثم إن الإيمان بالله — وهو لبابُ الدين — يكون أقوم ، وأهدى
حين يكتشف الإنسان نفسه حاجته إليه ، لا حين يُبمَلَى ويفرض عليه . .
ولهذا — كما أسلفنا في الفصل الأول — يترك الله إبراهيم عليه
السلام يجتد في البحث عن إيمانه . .
يبهره ضياء القمر ؛ فيقول : هذا ربي .

ثم يبهره نور الشمس ؛ فيغادر القمر إليها ، وينادى : هذا ربي . .
هذا أكبر . .

ثم ينتهي به تطوافه إلى أن الله لا بد أن يكون أعظم من
هذا كله . . وحسبه من علمه به ، أنه الذي فطر السموات والأرض . .
وتطلَّع إبراهيم هذا ، يشبهه في الزمن الأول ، تطلَّع الرجل
البدائي إلى اللانهاي . . وإن كان تطلع إبراهيم عليه السلام يمثل
منسوباً من الوعي أسمي وأرشد . .

وهذا يُصدِّق أن الدين تجربة الإنسان . . لا بمعنى أنه اخترع
ليزجى به فراغا ، أو يقضى به وطراً عارضاً . . ولا بمعنى أنه اخترا
أول محنال ، التقى بأول مغفل ، كما يقول قولتير في سخرية عابثة . .

ولكنه تجربة الإنسان بمعنى أنه انعكاس إحساسه العميق بخالقه
وبارئه ، وحاجته الراسخة الأكيدة لربه العظيم ، كما أنه مجلئ نشايطه
الروحي الزاخر . وهو لهذا سيظل جزءاً من صميمنا ما دام سرّ هذا

— ٩٠ —

الكون مجهولا .. وهو لن يظل مجهولا ، ولا منقأ ..
سنواجهه في يوم مقدور ، بعد ذلك اليوم أم قَرُب .
أجل - في يوم لا ريب فيه ، سنلاقي الحقيقة ونماتقها ..
سنرى الله جهاراً علنا ..

سنقف وجهاً لوجه أمام القوة العليا المحركة لهذه الأكوان المذهلة .
والدين نفسه ، يقول هذا ، ويتنبأ بحدوثه .. وهذا التنبؤ من أروع
آياته .. فهو يؤكد أن الإنسان لن يظل رهين الجهل والتبؤ .. بل إنه
سيصل .. سيعرف كل شيء .. سيرى الحق ويواجهه .. وهكذا يفسح
أمام الانسان آماذ الأمل والعمل

واليوم الذي سيتم فيه هذا ، يسميه القرآن « يوم الفصل » .. حيث
تتبدى الحقيقة في وضعها الفاصل ..

ويسميه « يوم الجمع » .. حيث لاشتات ولا فرقة بل نحن والحق
مما .. وحيث يلتقي الإنسان بالحقيقة التي طال بحثه عنها

ويسميه « يوم الدين » .. حيث نؤدى للدين تحية الشكر إذ كان
الحافز الذي لا يهدأ وراء تطلعتنا إلى اللانهاى العظيم ، وإذ كان باعث
أشواقنا العالمة ، ونخاطرنا السامية في شوطننا الطويل ..

* * *

— ٩١ —

الدين ، والعلم ، والفلسفة إذن ، مُقوى اهتدى إليها الإنسان لينقل
بها نفسه ، ويبلغ بها غايته وهي مجلّى فكره الثاقب النامي . .
وكلمة « فكر » تبدو ، وفيها من السيادة ما يجعل وضع كلمة « حر »
إلى جوارها فضولاً ولنوعاً . .

فليس للفكر سوى حالة واحدة يتأكد فيها وجوده ، تلك هي حالة
التحرر المطلق من شتى القيود

أى أن ليس ثمة فكر حر ، وفكر غير حر . .

هناك فكر . . أو ، لا فكر على الإطلاق

ولكن للفكر أيضاً تناقضاته التي يتخذ خلالها طريقه ، ويمارس
وظيفته . . ولقد جهل الناس دور هذه التناقضات دهرًا طويلًا فاشتجر
بينهم الخلاف والنزاع . ولم يكن الذي حدث ولا يزال يحدث من خصومة
بين كل من الدين والعلم والفلسفة — أو بتعبير أصح ، بين رجال الدين
ورجال العلم ، ورجال الفلسفة — إلا مظهرًا للجهل بعمل تلك التناقضات
وحكمتها ، ومظهرًا للجهل بنشوء هذا التنوع في المعرفة البشرية . .

لقد تعودنا أن ندرس الفكر الأنساني في « قطاعات رأسية » .
فنقول : الفلسفة ، والعلم ، والرياضة ، والفن ، والأدب ؛ والاقتصاد ،
والاجتماع . . الخ . . ولكن ، حين نأخذ هذه المعارف جميعًا ، ككل ،
متمثل في الفكر الأنساني ، كما هو واقع فعلاً ، فإن هذه النظرة كفيلة

— ٩٢ —

بحملنا على احترام كافة القوى الفكرية التي يعبر بها الفكر عن نفسه .
إن الدين ، والعلم ، والفلسفة ، وما ينطوي تحتها جميعاً من علوم
منبثقة منها — كالأدب ، والتصوف ، والرياضة ، وعلوم النفس ، والكيمياء ،
والحياة ، والاقتصاد ، والاجتماع الخ .. هذه كلها مملكة العقل الرشيدة ،
التي لا تعرف الضمّن ، ولا ينبغي لها أن تعرفه .

والدين ، والعلم ، والفلسفة ، هي تجلّي ظهور الفكر الإنساني ، ومجال
حركته . ولقد بثت نفسه فيها جميعاً لينمي عن طريقها تجربته ، وليحقق
عن طريقها ذاته .. فقيم الخلاف إذن ..؟

كثيراً ما نرى المؤمنين بالعلم ، وبالفلسفة ، يخافون على التقدم
الإنساني من الدين . . . !!

ومآتي هذه المخاوف — في رأينا — أنهم يجهلون مكان الدين من
الفكر .. ويظنون « دولة داخل دولة » أو قوة غريبة مجهولة اقتحمت
حياة الإنسان . . .

بيد أن الفكر ثاب في قلب الدين ، والتطور الهائل الملحوظ الذي يحدث
للتفكير الديني ويجدد مفاهيمه ، دليل على وجود الفكر هناك ..

ومن هنا ، لن يكون الدين أبداً ، خطراً على التقدم لأن الذي
يصوغ للتقدم منهجه ، ويرسم له خطاه ، هو نفسه ، الذي يكتيف الآجاء
الديني ، ويمسك بزمامه ، ألا وهو الفكر . . .

-- ٩٣ --

وأيضاً . كثيراً ما نرى المؤمنين بالدين يخافون العلم ، والفلسفة على الدين ، ويخشون منهما على تقدمنا الروحي والأخلاقي ..

فلو علموا هم الآخرون أن الفكر الإنساني الصاعد ، إنما يتوسل بهما - العلم والفلسفة - لإجزاء تقدمنا كله ودعْم مسيره .
سكانوا أقرب رُحماً إلى العلم ، وإلى الفلسفة ، بل وإلى الحقيقة كلها ..
إنه ما دامت كل هذه القوى مظاهر خارجية للفكر الانساني ، فلا بد من أن تتلقاها جميعاً بقدر مُساوٍ من الاحترام .

رجل العلم المؤمن بكشوفه وبقوانينه ، لا يليق به أن يتجهم للإيمان الخالص ، ولا يتنكر للاستشراف الروحي ، لأن العلم نفسه ينفر من من الأحكام النهائية ... وتتقلب السلمات ، والرياضيات التي بلغت الشأو في دقتها ، كل يوم بين يديه من حال إلى حال .. وإذن ، فهو لا يستطيع أن يزعم لنفسه حق إصدار حكم نهائي ضد الايمان .

ورجل الفلسفة ، لا تأمره الفلسفة بتحدّي الايمان ، وتجاهله .
لأن الفلسفة كلها عبارة عن « كيف .. ولماذا » ..

وإذا جاز للفيلسوف أن يتحرك من وراء هذين السؤالين - أي أن يبحث بحثاً حراً ، غير مقيد بأحكام مسبقة حتى ولو كانت دينية فإن رجل الدين له نفس هذا الحق المشروع . .¹

ورجل الدين كذلك . لا يحق له أن يضيق صدره بنشاط العلم ،

أو يضيق نفساً بحوار الفلسفة . ولا ينبغي له أن تذهب طمأنينته حسرات من ذلك العدو الذي يخشاه دوماً . وهو الإنكار أو الإلحاد .

فليس على ظهر الأرض من لا يتمنى من كل نفسه أن يكون هناك إله قادر ، يلجأ إليه في أزماته ، ويطلب عونه ، وينعم برأيته .

ليس على ظهر الأرض فرد واحد ، بينه وبين الله ثار وعداوة .

كل ما في الأمر . أن الذين لم يهتدوا للإيمان ، وقموا تحت تأثير

الفكر الإنساني في نقطة بعيدة بعض الشيء عن الإيمان .

كما أن المتجهين اتجاهاً دينياً محضاً ، ينأى بهم عن العلم ، وعن

الفلسفة . قد أصابهم نفس الأمر . ، فوقموا تحت تأثير الفكر في نقطة

أقرب إلى الدين ، وأبعد عن العلم ، وعن الفلسفة .

وأقرب الناس إلى الكمال والتفوق ، هم أولئك الذين يكونون تحت

تأثير متكافئ ، ومتماثل من الفكر الإنساني العظيم .

والفكر الرشيد حقاً ليس هو الذي يقول : « هذا ، ولا شيء معه » .

بل من يقول : « هذا ، إلى أن يظهر خير منه » .

والحق أقول لكم : إنني لا أخاف من الإلحاد على قضية الإيمان أبداً .

بل إنه لمن تمام النعمة على الأعمام ، هذا الذي نسميه إلهاداً . ذلك

أن الإيمان لو ترك للطمانينة ، لذوى ومات

إن جَوَّ المارك ، كان ولا يزال المناخ الطبيعي لكل ضرورة .

وكل فضيلة ...

ثم إن الدين ، كأي شيء آخر ، قد اكتسى خلال تطوره ومساره بطبقات كثيفة من الحرافات الدخيلة ، والإضافات المتطفلة .. ولم يكن ثمة ما يكشف هذا الدخيل سوى ناقد مثابر ، وخصم لجحوح .

ألا وإن التخوم الفاصلة بين الدين ، والعلم ، والفلسفة ، لتناع رويداً رويداً .. ويوم يسترد الفكر الإنساني انبثائه ، سيختفي آخر معلم من معالم التفاوت بين هذه القوى .

ونحن لا نحاول بهذا أن نعقد صلحاً بين الدين والعلم والفلسفة .. ففى التحليل النهائي لحقيقة كل منها ، لا خلاف بينها ولا نزاع ..

إنما الخلاف والنزاع بيننا نحن الناس .. بين الصنوف المختلفة والمتباينة لإدراكنا .. ولذا نسوق هذا الحديث لتعيد على ضوئه فهم وتحديد علاقاتنا بالدين وبالعلم وبالفلسفة أولاً .. ثم علاقاتنا ببعضنا ثانياً .

× ×

عند ما أذاع الفيلسوف الأثيني « انكساجوراس » أن الشمس ككرة من النار ، ولبست إلهما ، نفاه أهل أثينا خوفاً من أن تعمهم الشمس بعذاب .. !!

ومن بعد انكساجوراس مئات المشاهد وآلافها ، شهدت أقواماً من أفذاذ البشر يتعرضون للهوان ، وللعذاب من أجل الصدق .

— ١٦ —

وفي كثير من تلك الوقائع ، كانت الجماهير هي الوقود الملتهب الذي
يحرق العباقرة والأبرار .

أين كان الفكر يومئذ ليحمي رواده . . . ؟؟

كان غائباً . . .

ذلك أن الفكر إنما يسطق نفوذه عن طريق الثقافة . وفي المجتمع
المتقف يكون نفوذ الفكر سامقاً وعظيماً ، وبالتالي يرتفع شأن الحقيقة
ويتأكد سلطانها ، ويصبح « كبت الحقيقة » خطراً تقاومه الجماعة كلها . .

إن أعظم ما يقدمه الفكر للناس هو أنه يُؤمِّنهم من خوف . .
والإنسان لم يستطع أن يسير عبر نفسه ، ويصنع تاريخه إلا بقدر ما كان
يقهر مخاوفه ويتحرر منها . . وكان سبيله لهذا ، القوة الفكرية الواعية
الداهمة التي كان الفكر يصبها في قلبه ، وفي ساعده . .

أجل كان الخوف ألد أعدائنا ، ولا يزال . .

ولكن ، ما شأن الفكر بالخوف . . ؟

الصلة واضحة . . فالسبب الحقيقي للخوف ، هو الجهل . . ولقد خفنا

الرعد ، والبرق حين كنا نجهل كنههما . .

وخفنا الأرواح ، فعبداها . .

وخفنا القحط ، وضعف المحاصيل ، فذببنا أفراداً منا . وقدسناهم

قرايين .

-- ٩٧ --

وخفنا ملوكنا ، فعبدناهم ، وإلى أيام فائلة ، كان شعب كبير يعبد
« الميكادو » ابن الشمس . ١

كذلك خفنا ، ولا تزال نخاف من الفكر كل جديد .. لأننا كنا
نجهل طبيعتنا الصاعدة . ونجهل إرادة التاريخ المبرة عن إرادة الإنسان
في التطور ، والتغير ، والارتقاء . ونجهل طبائع الأشياء حولنا .
ولكن الفكر الذي اقتحم جميع مناطق شعورنا ، وتجربتنا ،
والطبيعة حولنا ، مضى يذيم نعتي مخاوفنا أولاً ، فأولاً .

وهذا هو دوره الباسل العظيم .. ومن أجل هذا ، ينظر الفكر
إلى كل قوة تحاول الضنط عليه ، وتحديد إقامته ، والتحكم في اتجاهه .
ينظر إليها كأيمة للخوف ، وللجهل . تريد أن تستبق في وعينا قدراً من
الخوف يمكن لها ، ويمرقل مسماها في تحريرنا .

قلنا : إن الفكر يبسط نفوذه عن طريق الثقافة .. فالثقافة ، هي
الانعكاس الشاسع العميم لحركة الفكر كله .

فما الثقافة هذه ؟ وما دورها ؟ وما واجبنا تجاهها ؟ إذا
شبهنا المكر بالقلب ؛ فالثقافة هي الشرايين التي يؤدي القلب بها وظيفته .
وإذا شبهناه بالدماغ ، فالثقافة هي الجهاز العصبي الذي يتلقى عن
الدماغ ، ويمطيه . .

- • وكما أن كلا منهما - القلب والدماغ - يعمل طرداً وعكساً .
- فكذلك الفكر مع الثقافة يعمل طرداً وعكساً . • يعطيها ويأخذ منها .
- وهكذا يستكمل تقدمه ونمائه . • •
- من أجل هذا ، يصير كل إضرار بالثقافة إضراراً بالفكر نفسه .
- وكل إعنات معها ، يصيب الفكر بالأذى الذي لن يكفّر قطعا عن أداء دوره . • • ولكنه يعرقه ويمتاقه .
- والفكر غالب على أمره . • • وسرعان ما يتسحج كل عقبات طريقه .
- ويذهب صاعداً . • • لكن الذين يحمل بهم سوء الطويل حقاً ، هم الناس الذين يتخلفون عن الفكر بتجديدهم له ، وبقطعهم ما يجب أن يبقى موصولاً بينهم وبينه من وشائج وأسباب
- • حيث تكون الثقافة ، يكون الفكر . • •
- • وحيث توجد الثقافة رفيعة شاملة ، يوجد الفكر رقيقاً شاملاً .
- والفكر الإنساني ، لا ينسى أبداً وظيفته الرئيسية . • • وهي تحويل الجمالة إلى معرفة . • • والمخاوف إلى جرأة ، والعشوائية إلى منطق . • • والسذاجة إلى وعى مكتمل . • • وبعبارة واحدة . تحويل الدماء إلى صفوة .
- • أجل . • • هذا هو الدور الحق للفكر وللثقافة . • • تحويل جميع غرائزنا ، ومشاعرنا وطبيعتنا إلى طاقة مفكرة ، ورفع الأعداد الهائلة من البشر إلى مستوى الصفوة . • •

- ٩٩ -

كان الفن للصفوة .. وكان العلم للصفوة .. كما كانت الحياة كلها بكافة مناعها ومباهجها للصفوة .. ولكن الفكر في رحلته كان ينادى الكافة ، ويعني بمصيرها . وكثيراً ما كان يترك القصور الشاهقة الناعمة الباذخة ، ويسرع خطاه نحو كهف أو كوخ متعب ، تسكنه أسرة متعبة ، فيلتقي بكلمة السرّ إلى طفل صاحب جائع عريان .. فيمضي على غير نهج آتراه ، وبعد حين قريب يتكشف عن عبقرى عظيم ..

إن الفكر بهذا كشف عما في صفوف الكافة من استعداد ، وأبطل حجة الصفوة في استبقاء الفن والعلم والحياة لها .. وكشف كذلك عن غايات رسالته وعمله .. وعلم الثقافة دورها ، وعلمنا واجبنا تجاهها ..

ولثقافة تقطنا بدء ، لكي تؤدي عملها كاملاً غير منقوص ..

(١) الجماهير الإنسانية ..

(٢) الطبيعة الإنسانية ..

إن الجماهير الإنسانية ، هي المجلى الحقيقي لظهور الإنسان .. الإنسان الذي يعمل داخلها ، دائماً نفسه ودافعاً إياها معه إلى الكمال الميسور .

واقدم ذهبت عبور الامتيازات ، ولن تعود .. ودن اليوم بل ومن الأمل .. ثم تمت الجماهير تسلك أذن حياتها .

ونقل الثقافة للكافة ، على رأس واجبات عصرنا والتزاماته تجاه
نفسه ، وتجاه الأجيال .

أجل ، وأن التربية هي الطابع المميز للبشرية الجديدة التي طلع
عصرها ، وأهلت أيامها . . وهي — أعني — التربية تهيأ لتأخذ
مكان أشياء كثيرة ، طالما اعتمد عليها في تقويم الناس .

وخير طريق نسلكه لدفع التقدم الإنساني ، هو أن نضع وصية
سقراط موضع التنفيذ الناجز ، تلك الوصية التي تدعونا بأن « نعلم
أكثر مما نحرّم » . .

لقد سار الإنسان طويلاً بقوة العقيدة ، وسار طويلاً بقوة
التقاليد والمادة . . وسيسير طويلاً بقوة الثقافة . .

ليس معنى هذا أنه سيتخلى عن العقيدة ، وينبذ صالح العادات .
بل معناه أن الثقافة هي التي ستنسق ، بل بدأت بالفعل تنسق مجموعة
المعتقدات والعادات . وهذا يكشف عن ضرورة تعميم الثقافة . . .

إنه ليس بوسع الناس أن يقفوا عند تقاليد انتهى دورها . . .
وإن الجهل ليزين لهم الوقوف حتى تأتيهم قوة تنقلهم . .

وإذا كانت حركة التاريخ هي تلك القوة التي يصطنعها الإنسان
لهذا ، فإن خير ما نتمتع عليه حركة التاريخ هذه ، هي الثقافة .

في الأزمان القديمة ، كانت الأسطورة تُكافح بأسطورة مثاها . .

ولكن الانسان اكتشف أن لهذه الطريقة آفاتها . . فالأسطورة الآفلة لم يكن التفسير يبلغ صميمها .. كان الذي يتمير ، هو شكلها لا طبيعتها .. ومن ثم أعطى الثقافة كل ثقة ، وصار يعتمد عليها في صوغ آرائه ، وعاداته ، ونظمه .

وكما انتهت عصور المسلمات ، والأحكام النهائية بالنسبة للعلم ، فينبغي أن تنتهي أيضاً بالنسبة للناس ، حتى لا يضلوا في الهوة الفاعرة بين مسلك العلم ، ومسلكهم .

أعني أن الجماهير نفسها . يجب أن تتوفر لها فرص التفكير بمنهاج علمي ، وتشخذ ملكات البحث لديها ، حتى لا يعمل العلم بعيداً عنها . ، وحتى لا يتسع مدى هذا الانفصال الملحوظ بين العقل والتخلق .. بين العلم والسلوك .. . وهذا يقتضي أن تتوفر لها أكبر حظ من الثقافة

سيقول ناس منا ، ما للجماهير والثقافة .. ؟ ؟ أولئك هم النازعون إلى الارستقراطية ، والامتياز ، والاستعلاء .. !

وأولئك هم الذين ينسون أن جُلَّ العباقرة بزغوا من الكهوف الخاوية - ومن صفوف الجماهير العريانة البائسة ..

وأولئك هم الذين لا يستشرفون - أقل استشراف - مصير الإنسان .. .

إن مصير الإنسان ، هو مصير هذه الجموع .. وإن الانسان

(٧)

— ١٠٢ —

ماض إلى قمة السامقات .. ما في ذلك ريب .. وإذن فاجموع ماضية
إلى نفس المصير العظيم . وسيأتي اليوم الذي تُنعم فيه العبقريّة
والمعجزة .. وإنما نشيد بأهمية العمل من أجل تدجّل هذا اليوم ،
وذلك بالقيام بكل تبعاته .. وأولها نقل الثقافة للسكافة ..

سيقولون : أيّان للجماهير أن تمتلك الثقافة ، وهي التي تقودها
غريزة القطيع .. وهي التي نرى أهواءها تتجه بها صوب كل تافه من
الأمور وغث .. ؟؟

أجل إن غريزة القطيع تقود الجماعات . . ولكن أليست غرائز
الحيوان تعمل عملها في الفرد العبقري ذاته . . ؟؟؟
إن مصير هذه الغرائز معروف في مستقبل الإنسان . إنها جميعاً ،
في الفرد وفي الجماعة ، ستتحول إلى قوى إنسانية محضّة عالية .
أما اتجاه أهوائها إلى كل تافه وغث . . فلأن فرص الثقافة بعيدة
منها كل البعد .

إن الجماهير تُؤثر - حقاً - وسائل التسلية ، والترفيه على معاناة
المعرفة ، ومُدارسة الثقافة .. ولكن مسؤوليتها عن هذا ليست
إلا جزءاً من مائة جزء ، من مسؤولية قادتها وحكامها ..
كما أنها أيضاً مسؤولة الاستعمار الذي عاث في الأرض فساداً ،
والذي يعتمد في دعم سلطانه على غفلة الجماهير ويُشجع دوماً إقبالها
على التسلية ، وعلى اللهو واللعب ويخاف والفراغ ، والمعرفة .. وهو لهذا

— ١٠٣ —

يُحشد أوقات الناس بما ينسيهم ما يُريد هو أن ينسوه ، وبما يصرفهم عما يريد هو أن ينصرفوا عنه . .

لكن ذلك لن يدوم .. لأن الجماعة الإنسانية كما أسلفنا تسير في طريق ساعد .. وركونها إلى المتعة العارفة عن التفكير وعن المعرفة أمر مضاد لطبيعة تطورها .. بل هو أمر كفيل بالقضاء على جهودها فكأني من حضارة ، ومن امبراطورية ، قضى عليها إيثار المتعة على المعرفة . .

ولقد انتفع الإنسان بهذه التجربة ، ولن يسمح بالاتكاس إليها .
يقول جلبرت هايت (١) :

- « عندما غزا اليابانيون الصين ، عُنوا بتجارة الأفيون ،
- « فأباحوها ، وشجعوها في جميع المناطق المحتلة ..
- « واتخذ الألمان - العودكا - وسيلة كهذه الوسيلة في بولندا .
- « أما - شادو - الحاكم بأمره في كوبا فكان خلال
- « حكمه يملن عن عرض أفلام خليعة في مسارح هاڤانا
- « كلما توقعت شرطته السرية ثورة أو احتجاجا ..
- « وهكذا تستطيع أن تفسد أكثرية شعب إذا وفرت
- « لها توفيراً لا ينقطع ملذات تُبَلد عقلها . . . 11

(١) كتاب « جبروت العقل »

— ١٠٤ —

هذه الأمثلة تبين لنا بعض العوامل التي تحول بين الجماهير والثقافة ..
والتي تعمل جاهدة لتبليد عقلها ، وتضال تفكيرها . وليس من
العدل إذن أن نحاسب الجموع عليها حساباً يُفضى إلى حرمانها المطلق
من أقدس حقوقها ..

إن الثقافة ليست امتيازاً .. إنها حق الجميع . وليس من الخيال
أن نطمح في جماعة إنسانية تنتظم ألفي مليون نفس أو تزيد ، ثم تُحرز
كلها من الثقافة ومن النبوغ ما يحرزه الأفراد من بعض أفرادها ..
أجل ليس هذا من الخيال ، بل هو من التبعة التي تشكل جزءاً
هاماً وصادقاً من أمانة الحياة التي تقبلناها واثقين .

× ×

على أن هذا الارتباب في الجماهير ، يمثل بدوره سبباً من أهم
أسباب الإذعان لحقها في تقل الثقافة إليها .

ذلك أن هذا الشك ينمكس على القيم الكبيرة فيفسد علينا ،
الأدراك السديد لها .

ونضرب لهذا مثلاً - الديمقراطية ...
من كان يصدق أن فلاسفة الحرية في العصور الخالية يقولون كلاماً

— ١٠٥ —

ينعت الديمقراطية بأنها خرافة .. لا شيء إلا لارتياهم في قدرة
الجهير على تطبيقها .. ٢٢

لقد حدث هذا ، والذين بشرُوا بالديمقراطية عادوا من أمرها يائسين .

فبعضهم يراها « آراً من آثار الولاء القبلي للحرب » .. ١١

وبعضهم يصفها بأنها « حكومة الذين لا يحكمون » ..

بل روى عن « روسو » معلى حقوق الإنسان هذه العبارة

المرجفة : « الديمقراطية الصحيحة ، لم توجد قط . ولن تُوجد أبداً » ١١

وحكوا عن كارليل قوله : « الديمقراطية بطبيعتها شيء يُلنى نفسه

بنفسه . ويؤدى في نهاية الحساب إلى نتيجة هي : صفر صحيح » .. ١١

و« قولتير » — الذى لا تُذكر الحرية إلا مقروناً بها اسمه يقول هو

الآخر : « إننا فى النظام الملكى لا نحتاج إلا أن نعلم رجلاً واحداً ..

أما فى الديمقراطية فينبغى أن نعلم الملايين الذين يختطفهم الموت قبل أن نعلم

عشرة فى المائة منهم » .. ١١

هل سأل أولئك الأفاذاذ أنفسهم ، لماذا أحقت ، أو لماذا تخفق

الجهير فى استخدام الديمقراطية .. ؟

إنها أخفت لأنها لم يكن لها من الأمر شيء .

ولم يكن لها من الأمر شيء لأنها تخاف ..

وهى تخاف ، لأنها تجهل .. ومن ثمَّ يسلس قيادها لكل مقامس .

— ١٠٦ —

وإن هذا المثل الذي ضربناه ، ليرينا كيف ينمكس الشك في
الجماعات على تفكيرنا ، وعلى قيمنا .. ويرينا بالتالي ضرورة تغيير
نهجنا في صياغة الأحكام التي نطاقها جزأفا على الجماهير والتجموع .
إن جماهير - أثينا - التي صفت لقضايتها وهي تحكم بالموت على سقراط
وجماهير - أورشليم - التي هلت لشهد المسيح وهو يقاد إلى التعذيب
وجماهير - فلورنسا - وهي ترحم بالحجارة منقذها الأمين
سافونا رولا ..

وجماهير - روما - التي غشها الحُبور وهي تشهد حرق برونو ..
والجماهير التي سارت وراء المغامرين إلى حتفها في حروب
تلو حروب ..

كل هذه الجماهير ، لم يكن ينقصها لكي تقف الموقف الراشد
القويم سوى الثقافة والمعرفة .. ولو أنها كانت تعرف ، وتفكر ،
وتفطن ، إذن لكان لها من أمرها يُسرُّ ، ولبلَّغت من أمرها رُشدا ..

❧ ❧

إن الجماهير البشرية ، هي تجلّي الإنسان ، ومستقر حركة وعيه
ونشاطه .. والإنسان في كيانه الحق - فكر .. والجماعة في كيانه
الحق ثقافة ومعرفة ..

— ١٠٧ —

وكل تطور لنا إلى أفضل ، رهين بما يتوافر لنا من فرص الثقافة
والعلم •

ليست عزية العلم أنه يسخر لنا الطبيعة وحسب .. بل إنه والثقافة
بصفة خاصة ينميان علاقتنا بأنفسنا ، وبالطبيعة ، وبالحياة ، وبالكون
كله ..

ف عشرات الملايين منا — نحن البشر — يستعملون « التليفون »
ثم لا يعرفون ما هو ؟ ولا لماذا يتم الاتصال هكذا بين الأبعاد ..
وعشرات الملايين يُصغون للراديو نهارهم وتمسأهم ، دون أن
يعرفوا كُنه الشيئة الحانية التي سخّرت لنا هذا العمل العظيم ..
ليس معنى هذا أنه ينبغى للناس أن يتحولوا جميعا إلى فنيين في
صناعات التليفون ، والراديو ، والكهربا .. وإنما معناه أنه ينبغى
لهم أن يدركوا جميعا مآتى الملاقة الهائلة التي تربطنا بالكون ،
وبالأشياء كلها ..

فالعلم بكشوفه ، يغمرنا بالصدقات النافعة ، وفي كل اكتشاف
جديد ، يقدم لنا صداقة جديدة . مع الهواء .. مع السماء ..
مع الكواكب .. مع البحار .. مع كل شيء في كون الله الرحيب ..
وتعميم الإحساس بهذه الصداقات بين الجموع الانسانية أمر
ضرورى لكي تظفر بالمزيد من الطمأنينة ، ومن الذكاء ، ومن

— ١٠٨ —

الأمل .. ولا شيء يمنحها هذا الإحساس سوى الثقافة .
كان « جورج وشنطن كارفر » العالم الزنبي الأمريكي ينحنى فوق
النبات في الحقل ، وفوق العشب في الكلاً ، وفوق نثارات الأشياء
المهملة المنقاة على الأرض ، ويحلق فيها بعينين ذكيتين ، ويأثمها بغم
شكور ، ويصفي إليها . فإذا سئل :

— ماذا تفعل يا مستر كارفر .. ؟؟

يجيب : إني أنصت وأعي ..

وهل تُحدثك هذه الأشياء يا مستر كارفر .. ؟؟

فيجيب :

أجل — إن الله يتحدث إلي من خلالها ... !!

هذا هو الرجل الذي استنبط من القول السوداني وحده قرابة مائتي
مُكتشف وصنف ، ما بين طعام ، ولباس ، وشراب . لأنه احترم
علاقاته كإنسان بأشياء الطبيعة حتى مهملاتها التي يدوسها الناس ،
وحاول صادقاً أن يكتشف دور هذه العلاقات .. !!

إن تطور أفكارنا ونموها ، رهينان إلى أبعاد مدى ، بأدراك مفاهيم
العلم ، ودور العلاقات التي تتبدى لنا خلال كُشوفه العظيمة ، على
أن يكون هذا الإدراك من نصيب الكافة .. وجميع الناس .
وإذا لم يكن يعنينا معرفة التفاصيل الفنية لكشف ما .. فإنه

— ١٠٩ —

يمنينا كثيراً وكثيراً ، أن نعرف القوانين التي وراء هذا الكشف ،
ونعرف كل علاقاتنا به ، ومصيرنا معه ..

إن هذا المعرفة ضرورية .. ولنضرب لهذا مثلاً .

لعله لم يحدث في التاريخ الانساني إجماع على مقاومة الحرب
مثلاً يحدث اليوم ..

فلماذا .. ؟ ؟

ربما لأن خسائر البشرية في الحربين العالميتين السالفتين
نذراً رهيباً ..

ولكن قبل هذا ، وفوق هذا .. اكتشاف الطاقة الذرية

واكتشاف هذه الطاقة ليس هو الذي ألهم الجماهير هذا الاجماع
ضد الحرب فأكثر من خمس وتسعين في المائة من سكان الأرض
لا يعرفون عن صناعة النرة شيئاً - أي شيء - وإنما اكتشاف العلاقة
بيننا نحن البشر ، وبين هذا الطاقة الهائلة ، هو الباعث والسبب ...

لقد أتيح للرأى العام العالى أن يعرف حقيقة دور الطاقة
الذرية في الحرب ...

إنها الأباداة الشاملة ، والدمار المطلق ..

وهنا حفز هذا الإدراك جميع الناس لدرء الحرب ..

كما أتيح للرأى العام العالى أن يعرف حقيقة دور الطاقة

الذرية في السلم . . .

إنه الرخاء العميم الذي يجعل الأرض في بضع سنوات
فردوساً ما مثله فردوس .

وهنا انبعث الناس جميعاً يجلجلون بدعوة السلام . . .

ولئن كانت حضارات كثيرة قد تقوضت فيما سبق من عصور
بين يدي الانسان ، فلأنه لم يكن قد عرف بعد ، قيمة وحتمية
إدراكه لعلاقاته بالأشياء ، ولم يكن نوعه البشري قد تهيأ بعد
لأداء حقوق تلك العلاقات . . .

أما اليوم ، فقد أدرك الانسان ، وصار الناس أكثر
استعداداً لفهم العلاقات وتحمل تبعاتها وسيصيرون غداً ،
وبعد غد ، وداعاً أكثر فهماً وأكثراً استعداداً . . .

ولن تهب الرياح التي تنبأ بها الشاعر « اليوت » والتي
ستجىء حسب نبوءته لتكس بقايا البشرية المنتحرة الفانية ،
والتي ستموى قائلة :

« هنا . عاش قوم كرام لا يؤمنون بإله . . . »

« وأثرهم الوحيد الباقي هو طريق مُعبّد بالأسفلت »

« وألف كرة من كرات الجولف » . . . 111 »

أجل ، لن تهب هذه الرياح . . . ما دامت البشرية قد عرفت ،

-- ۱۱۱ --

وما دامت قد أدخلت في اعتبارها الأکید الراسخ ، تعميم
الثقافة . . .

* * *

قد يرى بعض السادة أن الثقافة تفقد عظمتها وقيمتها حين تنتقل
إلى الكافة وتصير طوع أيديهم ..

وهذا يشبه قولنا : إن الشمس تفقد الكثير من وجاهتها وعظمتها
كلما وقعت أشعتها على الأعداد الكثيرة من الناس ، سيما أعداد الدهماء
والسوقة . . . أي منطبق هذا . . . ؟؟

إننا لو رأينا رجلاً جباراً ، يكتم أنفاس الناس ويكتم أنوفهم ،
حتى لا يزحموه في تنشق الهواء ، أو حتى لا يحدثوا في الهواء أزمة !! ،
لما كان أدعى إلى العجب ، من هؤلاء الذين يخافون على تفوقهم ،
أو يخافون على الثقافة نفسها أن تغيض وتغنى ، حين تقترب الكافة منها ،
وتفترف . . . !!

فالجاهير ، هي الإنسان في دوره التاريخي . . هي الإنسان في
حركته النامية . . هي الإنسان في كينونته الصائرة . . والإنسان ، هي
الفكر المرید . . فأى شيء يعنيه حرمان الجوع من الثقافة بأفسح
وأرحب مدلولاتها . . ؟؟

— ١١٢ —

إن ذلك لا يعني قتل الإنسان ، فالإنسان لم يوجد لتقتله المحاولات
التعسة ، أو تطويه الزوابع الضالة .. وإنما يعني فقط العمل ضد طبيعة
الإنسان ، وعمل كهذا يحمل بذور تفسخه وأحلامه من أول وهلة

ولكن أى نوع من الثقافة تقدمه للناس . . ؟؟

هنا نلتقي بنقطة البدء الثانية ، وهي طبيعتنا الإنسانية .. لقد
ذكرنا آنفاً ، أن للثقافة تقطى بدء .. الجماهير الإنسانية ، والطبيعة
الإنسانية .. ولقد تحدثنا عن صلة الجماهير بالثقافة ، والآن نتحدث عن
صلة الطبيعة الإنسانية بالثقافة أيضاً ..

إن طبيعتنا الإنسانية ، تملك البوصلة التي تحدد وتشير إلى حاجاتنا
الثقافية ..

هذه الطبيعة التي لم تخلق بين عشية وضحاها .. وإنما تكونت
عبر ملايين السنين ، وأصبحت تمثل كوناً هائلاً زاخراً بالرؤى
والتجارب ، والإمكانيات ..

إنها هي التي تتجه بنا إلى الفلسفة ، فنتفلسف ، وإلى العلم ، فنكتشف
وثقافتنا نحن البشر ، إنما تعمل في خدمتنا ، وتهيئه وسائل ارتقائنا ..
من أجل هذا لا يكون طريقها السوى أن تبدأ بالمثل العليا .. هابطة

— ١١٣ —

إلى طبيعتنا .. بل أن تبدأ من طبيعتنا الإنسانية متجهة صوب
القيم والمثل .. هذا ، إذا اعتبرنا المثل العليا شيئاً خارجاً عن طبيعتنا ،
وهي ليست كذلك فيما نرى ..

وإن حنيننا الفطري إليها حتى ونحن في حمأة الرذيلة ، وشوقنا الدائم إليها
حتى ونحن في متاهات الشهوة ، يشيران إلى أنها أعنى مثلنا العليا ،
ليست في الواقع سوى جزء من طبيعتنا تاه منا في زحمة الحياة . ولافتناً
طبيعتنا تعمل جاهدة لاسترداده ، وتجري بنا وراءه ، كما تجرى الأم الحانية
وراء وليدها الغائب

فتوجيه الثقافة ، ووضعها تحت إمرة الوصاية صيانة للعرف السائد
والقيم السائدة عمل غير صالح ، لأن جهة الاختصاص الوحيدة في توجيه
الثقافة ، هي طبيعتنا الإنسانية ممثلة في الإرادة الكلية الخيرة لبني الانسان ..
كما أن الثقافة كقوة واعية ، هي التي تملك تحديد المواقف التاريخية للمثل
العليا ، وللفضائل الاجتماعية ...

وإذن فمن المذر والفضول ، أن يتلمظ ناس بهذا السؤال :

هل تُوجّه الثقافة ، أم تترك حرة .. ؟؟

إذا كان مفهوم التوجيه ، استقصاء حاجاتنا الثقافية دون أي مساس
بجربة الكلمة ، وحرية الثقافة - فَنِعْمًا هو .. أما إذا كان مفهومه تحديد
الدروب والأزقة التي تمشي فيها الثقافة على استحياء وحذر ، فهنا تصبح

- ١١٤ -

الحاجة ماسة ومُلحَّة لأن ندرك رفض الثقافة لكل توجيه دخيل
إن الثقافة حتى حين تنطوي على جرأة يحسبها البعض تمرداً ..
يجب أن تظلَّ طليقة ..

وإننا حين نستعرض فترات التمرد الفكري في تاريخ البشر ، نجد
نفس الفترات التي تحدث خلالها المصائر العظمى لنا ، واستبانة عندها
معالم طريقنا الصاعد .

إن تمرد سقراط ، وكوبرنيكس ، وجاليليو ، ونيوتن ، وابن رشد ،
والفارابي ، وطرازهم القويم من الأفاضل ، كان ضرورة بقدر ما كان
فضيلة .. ليس لأنه اكتشف قوانين هامة وهدى إلى فاسقات قيمة
فحسب .. بل لأنه قوَّض الإيحاء المستمر ، والأملء العناظ ، والتقليد
الساذج ، وأتاح للعقل الأنساني أوفر حظ من استقلال الشخصية
واستقلال التفكير

إن الالتزام تقيض المعرفة ..

فالالتزام ، توقف ، وجهود ، بينما المعرفة تطلُّع ، وانتقال ، وكشف
وحركة مستمرة ..

وإذا كان العلم الذي يزن ويقيس ، ويتوسَّل بالمعادلات والقوانين ،
كثيراً ما ينادر يقيناً إلى ضده .. فهل يكون من العدل والمنطق إذن ،
أن يعكف الناس على رأيٍ ما ، باعتباره الحق المطلق الذي لا ينبغي لهم
أن يجاوزوه ..؟؟

وهل عمّة تفسير لتوجيه الثقافة غير هذا .. ؟؟
صحيح أن الإلتزام كان نافعاً .. إذ أنه طالما حفز أصحابه إلى التخصص
والتمق ، واستكناه بواطن الفكرة التي هي موضوع الإلتزام ، مما
يعطي المعرفة فرصة ومجالاً .. ولكن بعد سيادة العلم .. والعلم بطبيعته
يملك رغبة حادة في التقصي ، ويملك قدرة فائقة على بلوغه .. لم يمد عمّة
مكان للإلتزام ، ولا مكان لما ينجم عنه من تعصب ، وغرور ، وركود
وهكذا نصل إلى الإجابة السديدة عن السؤال السالف :
- أي نوع من الثقافة تقدمه للناس ..
إنها الثقافة كلها ، والمعرفة جميعها ..
فالثقافة كالتب ، لا تعرف الحلال والحرام ..
كما أن جميع أعضاء الإنسان في عين الطب سواء . ليس فيها ما هو
عورة .. وما هو غير عورة .. فكذلك موضوعات المعرفة كلها بالنسبة
للمعرفة ، ليس فيها ما هو حلال ، وما هو حرام .
فالخطر - أيّاً كان لونه - لاسلطان له على الفكر ، ولا ينبغي أن
يكون له سلطان على الثقافة الموضوعية الأصيلة .
ولا بد أن نقف هنا لنقرر أن الفكر الإنساني لاقى من الخطر في
كل المصور ، وفي كل البقاع ما كان كائناً للأجهاز عليه لولا مناعته
الفذة وطبيعته الخالدة

— ١١٦ —

وانطلاق الفكر ، وانطلاقنا معه ، رهينان بما تقدمه له من تقدير
وولاء وفهم سديد لحقوقه ولِدَوْرِهِ ..

أجل ، على المجتمع الانساني كله أن ينفذ يديه ، ويغسلهما من
غبار وأوضار المركة الخاسرة التي حاولها مع الفكر
إن الحظر الأخلاقى كثيراً ما يجىء ثمرةً لِحِجَّةٍ لِلنَّظْرِ كَثِيرٍ
وسأضرب له مثلاً . . الحب

الحب على رأس القيم العليا للبشرية . وكما شجنت البغضاء أنيابها
بين السياسات والدول ، بدت حاجتنا إلى الحب أكبر وأكثر .. وأيضاً .
كلما رفعت الأنانية أعلامها ، ازددنا هتافاً بالحب ، واستنجداً به . .

فما هذا الحب ؟

أنه فى التحليل النهائى لحقيقته ، تعبىر حتمى عن طبيعتنا الانسانية ، وهو
من حاجاتنا الأساسية التى نشترك فى حتمية الظفر بها - أفراداً ، وجماعات ..
والغبطة التى يُفِيئُهَا الحب إنما تتمثل فى الحقيقة ، فرح النفس بالعثور
على تناسقها . .

ذلك أنه حُبُّكَ إنساناً ما ، أو شيئاً ما ، إنما يمثل حالة تناسق تفتقد لها وحين
يظفر هذا الحب بتحقيق ذاته ، وتدرى أنك أنت الشيء الذى حبيت ، تبيئتك
الغبطة والراحة . لأن نفسك أنت ، تكون قد عثرت على تناسقها المفقود
وهكذا ، فالحب ليس مجرد نزوة .. بل إن كلمة « حب » تكاد تكون

تعبيراً هزيباً عن حقيقة الحب ..

تكاد تصلح للتعبير عن الانفعال الحبي أكثر مما تصلح تعبيرا عن حقيقة الحب نفسها

وقديما قيل ، وإنه لحق : « فاقدم الشيء لا يعطيه » .. فلا يستطيع أحد أن يهب الآخرين حبه وقلبه .. إلا إذا كان يملك أولا هذا الذي سيبدل منه ويعطى .

ولكن كيف لا يملكه ، وقد قلنا إنه - أعني الحب - انعكاس لطبيعتنا وحاجة أساسية من حاجتنا .. ؟؟

أجل ، إن فقدانها ممكن إذا واصلنا ردّ منابضه في طبيعتنا .. ولنتحدث بوضوح أكثر .

إننا نرجو من الحب ، أن يجعلنا - نحن البشر - إخوة متحابين ..

والحب ، ليس جهازاً يُشترى من السوق حيث نبلغ به الغرض العظيم .. ولكنه وظيفة من وظائف طبيعتنا الإنسانية ، وتمبير عنها . ونشاط لها .. أي أنه يبدأ زحلته من طبيعتنا ..

وطبيعتنا تموج بأهواء عدّة . وأرجح هذه الأهواء حتى يومنا هذا ، هو الهوى الجنسي .. لذلك لبث الحب زماناً طويلاً لا يكاد يعنى شيئاً سوى تعبير عن الهوى الجنسي ، وإشباع له

وعلى الرغم من جهود الديانات ، والفلسفات التي حاولت الارتفاع بمستوى الحب ، فقد كانت الطبيعة الإنسانية من القوة بحيث ظلت ممسكة

— ۱۱۸ —

بنقطة انطلاقه .. ولم يكن ذلك عبثاً . بل إن المراحل التي سارها ويسيرها
الحب في صحبة غريزة الجنس ، إنما تمُّ لصالحنا ، ولصالح المثل العليا
التي نهفوا إليها .. ذلك لأن المثل العليا لا تستطيع أن تخفى عنا طبيعتنا ،
والمجتمع الإنساني - في واقعه - لا يقوم على أساس من مثل عليا منفصلة عن
طبيعته .. بل يقوم على أساس من طبيعته الانسانية المتضمنة مثلها العليا .
ومادام الحب حتى اليوم ، ورغم كل المحاولات المثالية : لا يزال إلى
حد كبير مُفعمًا بالجنس ، ممبراً عنه ، فمضى ذلك بالبداية أن طبيعتنا
الانسانية لا تزال متطلعة إلى هذا المسلك لتحقيق ذاتها ، وأن الحب الجنسي
لم ينته بعد عصر سيادته . .

وهذا يدعو إلى أن نتقبل هذا الحب .. بدلا من أن نكافه وتقاومه
مقاومة تطيل أمد بقاءه ، وترجيء قدوم حب آخر أسى وأشمل لن يتأني
له الحجى حتى ينجز الأول عمله ، وينتهي دوره ..

لقد بدأ العلم بالسحر المضحك ، والسذاجة المثيرة وحجراً الفلاسفة ..
وتقد ظل كذلك آلاف السنين ..

وبدأ التدين - قبل أن يأتي الانسان من ربه هُدًى - بعبادة
الطوطم ، وعبادة الأشباح ، والأسلاف والخرافات ... ولبت كذلك
آلاف السنين ..

ولكن في النهاية تجلت الحقيقة الناصعة للعلم ، والحقيقة
الناصعة للدين .:

- ۱۱۹ -

إني أضرب هذا المثل ، لنبصر كيف أن أعظم قوائنا الإنسانية
التمثلة في الدين وفي العلم ، لم تنج من سنن التطور الطبيعي .. وأنها
عاشت بأخطائها حتى نَعَمَّتْهَا آخر الأمر عن نفسها وتفوقت عليها ..
كذلك كل نشاطنا الإنساني ، يعيش بأخطائه حتى يتفوق عليها ..
وكذلك الحب يمينا - الآن - بأخطائه وسوف يتفوق عليها ..
إننا لسكي نحصل على ذهب خالص ، لا نقول للأرض : اعزلي
" أبك .. وأخرجي ذهبك .. ۱۱
وإنما نأخذ من مَظَانِّ الذهب في الأرض كل ما هناك .. تراه . ،
وَحَشَّاشَه ، ووحله .. ثم نبدأ العمل ، فنستخرج الذهب الخالص ،
ونثفي الرواسب كلها ..
كذلك الأمر - إذا أردنا أن نظفر بحب إنساني يدفيء البشرية
المقرورة ، ويرفعها فوق مستوى الضغن والعداوة ..
أن ندع الحب يزاملنا في رحلتنا ..

كأن « أفلاطون » يقول :
« إن أشق صدقة يمكن الحصول عليها . هي صدقة المرء لنفسه » ..

— ١٢٠ —

ونحن البشر ، كثيراً ما نخاصم طبيعتنا فنثبت عجزنا المؤسف عن أن نكون أصدقاء ومحبين .. وقضية الحب التي ضربناها مثلاً ، تكشف عن إحدى تلك الحالات التي نمجز فيها عن أن نكون أصدقاء لأنفسنا ، ولطبيعتنا ..

إن كثرة كثيرة من الناس ، تتطير وتثور عندما يُجلى حاجة الحب ، أو يُوضح مشا كل الجنس ، كاتب أو فنان .. ؟ فلماذا ؟ ؟
يقولون : إن الكلمة المطبوعة كاسحة ..

فلتكن كذلك .. ولتكن أكثر من ذلك . فأى بأس .. ؟ إن هذا هو المناخ الوحيد الذي تكوّن الإنسان خلاله ..

لقد تُرك ملايين السنين للمراء ، وللثلوج ، وللخواء ، وللوحوش ، وللصواعق والأعاصير ، لأن ذلك كله كان أجمع الوسائل لاستكمال كيانه الصامد الصاعد الجبار ..

فلتعش روحه ، وإرادته ، وأخلاقه في نفس المُنَاخ .. وخير المواقب في انتظاره .. وكما انتصر جسده ، ستنتصر روحه .
على أن في سلوك الناس تجاه الكاتب أو الفنان الذي يجعل الحب والجنس موضوع قلمه أو ريشته .

أقول : في سلوك الناس هذا ، ما يثير الريبة ، وما يدل على أن وراء مسلكهم هذا سوء تقدير للأدب والفن ، وسوء فهم لوظيفتهما ..

— ١٢١ —

برهان ذلك ، أنهم لا يضيقون صدرا ، ولا يأسفون أبدا ، ولا يخافون على أنفسهم ولا على أبنائهم وبناتهم من كلمة العسلم في الحب وفي الجنس ..

مهما يقل العلم ، ومهما يُفيض في الحديث عن جوهر الحب ودوافعه ، ومهما يُفيض في الحديث عن الجنس ، وعن طبيعته ، واحتياجاته ، وانحرافاتة ، ووظائفه المضوية والنفسية ... لا يخافون حديثه ، ولا يتطيرون منه ..

فلماذا يخافون ويتطيرون من الكاتب ، ومن الفنان .. ؟؟ إن الأدب والفن ، يؤديان نفس العمل الذي أداه العلم .. ولكن بأسلوبهما وطريقتهما ..

إن مهمة العلم أن يكتشف الخصائص الذاتية للشيء ..
أما الأدب مثلا ، فمهمته أن يصور الشيء في كل واقعه ، وفي كل علاقاته ، ثم يستشرف الغايات البعيدة ، والتطور الممكن لهذا الواقع ..
فمَّ يخاف ومُبحاذر ؟؟

إن حياتنا تقترب من كمالها كلما أخذنا بناصية الوضوح .
ولقد عشنا زمنا طويلا نقتات بالظنون وبالهواجس ، وبالانحرافات ..
وظالما مُصغنا حياتنا وسلوكنا وَفوق أوهام ما كان أبعدها عن الحقيقة .
وإن الإنسان هو القيمة الوحيدة في عالمه . وعلينا أن ندرك هذا جيدا .

- ١٢٢ -

وما الصدق ، والخير ، والجمال ، والحب ، وكل هذه المعالي سوى
تعبيرات ملائمة تعكس طبيعته العظيمة ، وتنعكس عليها مشارف مستقبله
الواعد الجليل ..

وإذن ، فلا مكان للحظر الأخلاقي في فكره ، ولا في ثقافته ..
فالعامل الأخلاقي للثقافة إننا يبدأ باكتشاف الخطأ .. فكيف تكتشفه ،
إذا حرّمنا عليها وسائل معرفته .. ؟؟

ليس معنى هذا ، أننا نبارك الهذر والأسفاف .. فالفرق بين الثقافة
وبينهما واضح ومبين .. ومع هذا ، فأكاد أحس بالحاجة إلى تحديد
نسبي لمفهوم الثقافة التي أطالب بحقها في التحرر من القيود ، إنها في رأبي
« كل تفكير صادق » ..

كل إنسان يفكر في صدق وفي أمانة مع نفسه ، ومع الحقيقة ،
فمن حقه أن نستمع له .. هما يكن الخطأ المنطوي عليه تفكيره وتعبيره .
إن الصدق يتضمن الشعور بالتبعية : بل هو قمة هذا الشعور ..
وحسبنا من الكاتب ، أو الفنان ، أو المفكر ، أو العالم — أن يكون
على هذا الحظ من الشعور بمسئوليته وهو يؤدي رسالته .. وهو ينقل
إلينا تجربته .. وهو يكشف لنا من المجهول جزءاً لم نكن نعرفه ، ولم
نكن نراه .

نحن نعرف أولئك المفكرين الذين تحدثوا إلينا عن « مدّٰنهم
الفاضلة » ..

— ١٢٣ —

وعلى الرغم من أن معظم تلك الأحاديث وتلك المدن ، يمثل منامرات
فكرية ، لعب فيها الخيال ببراءة مُفرطة إلا أننا ونحن نتلوها نُحسُّ
احتراماً أكيدا لها .. لماذا ؟

لأنها تستمد مادتها من معالم تطورنا ، ويتضمن سياقها المرح إحساسا
صادقا وجادا بمشاكلنا ..

وعلى العكس من هذا .. نجد كتابا يكتبون عن الواقع الذي
نعيشه ، ويصورونه مشهداً مشهداً ..

ومع ذلك تجيء كتابتهم هازلة ، ضحلة ، قليلة الجدوى .. ذلك
لأنهم غير صادقين في شعورهم بما يكتبون . بل غير صادقين في إيمانهم
بأنفسهم كبلّغين عن الحقيقة ، وسفراء لها بين الناس .

وهنا يواجهنا سؤال :

— من الذي يمسك بالميزان ، ويميز التفكير الصادق من التفكير

الكاذب الهازل .. ؟

ونجيب ..

إنه الإنسان نفسه . والإنسان وجده ..

الإنسان المتمثل في الإرادة الكلية لوعينا ، وتفوقنا وفضائلنا ..

وهو على صعيد واقعنا القريب ، الرأي العام في أعلى نقاط تطوره وصعوده ،

« فأما الزَّيْبُ فيذهب جُفاءً .. وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » ..

إن تحرير الفكر والكاتب ، والفنان من وطأة التواهي ، ضروري
لبلوغ الكمال الميسور

والوعي الأدبي والفني ، هو خير هادٍ يهتدي الكاتب والفنان إلى
سواء السبيل .. وليس من حقنا أن نقول لأحدهما «أو كليهما» كخ ..
فوظيفة كل منهما « الخلق » ، ومهمة كل منهما أن يكشف لنا عن
الجانب الحسن ، في هذا الذي نراه رديئاً أي أن يكشف الحسن الكامن ،
في القبح المائل ..

وهذا يتطلب منه أن يمرض الصورة كلها ، قبيحها . وجميلها . بل
إنه كلما ركز على القبح ازداد تقيضة تألقاً وبهاء ..
إنما نطلب من الكاتب والفنان أن تكون أغراضهما الأدبية
والفنية صاعدة ..

أي أن يدلنا كل منهما على ما يمكن أن يكون ، من خلال تصويره
لهذا الذي هو كأن ..

وهذا ليس قيدياً نفرضه على حريتهما .. بل كشف عن مسئولية
هذه الحرية ، وهي مسئولية تتسق مع الحرية لأنها نابعة من صميم العمل
الأدبي والفني ، ومن طبيعته .

وقبل أن تناذر هذه النقطة من الحديث ، نود أن تؤكد أنه لا شيء
يهدي للتي هي أحسن ، ويبيث الفضائل اليانعة في النفس بثاً عظيماً

- مثل الثقافة إذا مزجت طفولتنا وبدأت معنا من مهدنا
إن الثقافة قوة أخلاقية ، لا علمية وحسب .. وإنا لنتفع بها كقوة
أخلاقية كلما بدأنا بها مبكرين . أى إذا ملأنا وعى الطفل بروح الثقافة
وروح المعرفة وذلك يقتضى أن تتوخى مناهج التربية السبل الآتية :
- * أن يدرك الطفل أننا لا نعلمه ، وإنما نقدم إليه خبرتنا .
 - * وأننا لا نتحكم فيه ، وإنما نُشير عليه ..
 - * وأنه إذا كانت لنا عليه حقوق ، فهي ليست على حريته . بل على
علاقتنا المشتركة لا غير .
 - * وأننا نعاونه لكي يصير « إنساناً » لا مجرد فرد .. أى أن تتجلى
الشخصية الإنسانية فيه بكل نبوغها واستقامتها ، وتفوقها تجلياً كاملاً .
 - * وعلينا أن نُنمّي حاسة الجمال فى نفسه ، فبقدر ما تكون حاسة الجمال
نامية ونابضة ، يكون ميلنا للعظمة ، وجنوحنا عن الأسفاف ..
 - وعندئذ لا نرى الكذب دبلوماسية .. ولا الكبر اعتداداً ..
 - ولا السرقة ربحاً .. ولا اللؤم براعة .. ولا الأناية تسامياً ..
 - ولا نرى الحب مجرد نزوة .. ولا المرأة مجرد ضجيمة ..
 - * وينبغى أن نجنبه الحظر ، والنهى ما استطعنا .. إن كلمة « لا تفعل »
تَهَبُّ الطفل نشاطاً سلبياً . ولكن « افعل » تروضه على النشاط

— ١٢٦ —

الايجابي الفعالم .. فبدلا من أن تقول له : لا تكذب .. لنقل له :
قل الصدق ..

أجل ، لنجعل أساس ثقافته الأخلاقية « افعل » بدلا من
« لا تفعل » ولنحذر أن نقولها جافة غليظة .. بل لتكن « من
الخير أن تفعل » ..

إذا توخت الثقافة هذه السبيل ، وغمرنا بها أطفالنا ؛ فليس هناك
شيء سواها يهب أسمى الفضائل ، وأعظم الأخلاق ..

* * *

وكما أن الثقافة ترفض كل حظر أخلاقي عليها ، فهي أيضا ، ومن
باب أولى ، ترفض كل حظر آخر .. ولقد أدرك ذلك كثيرون من
الفكرين الكبار ، وإذا كانت السياسة تتمثل أكثر ما تتمثل في الدولة
كنظام ، فقد دفعتهم النيرة الشديدة على الفكر وعلى النقادة إلى مهاجمتها ،
والتبشير بنهايتها .

أعلن « هويتان » أن وظيفة الدولة . إعداد الناس لمباشرة
أعمالهم بدونها ..

واعتبرها - نيتشه - « وحشا جريئا في الكذب والسرقة . كل
ما تقوله تكذب فيه ، وكل ما تملكه تسرقه » ..

— ١٢٧ —

ووصفها — تولستوي — بأنها « اتحاد مُلاك » .. ١٠٠
وتعجل — باكونين — نهايتها ، فزناً بأنه في عام « ١٩٠٠ » ستلاقي
الدولة مصرعها وتفقد كل دواعي قيامها ..
وحتى في انجلترا المحافظة ارتفعت أصوات مفكرين وكتاب منادية
بتصفية الدولة بكل منظماتها ، وتحويل مجلس العموم والوردات إلى
« مخازن للساد » .. ١١

والحق أن إمعان الدولة في توكيد سلطانها من جانب ، والصراع
السياسي بين دولة وأخرى من جانب آخر ، قد سببا لافكر الإنساني ،
وللتخافة من الناعب ، وألحقا بهما من الأذى والضرر ما يجلب عن الوصف ..
وكان هذا الأذى يباغ أعلى مناسيبه دوما في عصور الظلام، والانحطاط ..
ولكن الفكر رغم ذلك كله حقق جميع انتصاراته ، وقال كل
ما كان يريد أن يقوله .. وهو اليوم في عصور الرشد والحضارة .
أكثر قدرة على تحقيق ذاته ، وإذعة كلماته .. وإذن فتوفير الجهود
الناوثة له هو وحده العمل الحكيم .

ذلك أن تعطيل فكرة لا تعطلها وحدها بل تمطل معها أفكاراً
كثيرة كانت ستتولد منها ..

إن بذرة « النابجو » تحمل في باطنها آلاف الأشجار ، بل تحمل
عدداً لا ينتهي من أشجار النابجو ..

— ١٢٨ —

كذلكم الأفكار ورؤى العقل ، يحمل كل منها أعداداً لا تنتهى من الأفكار والرؤى وخلق فكرة واحدة ، يعنى خلق عدد لا ينتهى من الأفكار . ، وكما ننشقُ جميعاً هواء واحداً ، فثقافتنا نحن بنى الانسان واحدة ..

صحیح أننا نأخذ الهواء النقي ، وننأى عن الفاسد الآسن .. وفى الثقافة سيكون لنا نفس السلوك ، لكن ليس من حق أحد ما أن يحتكر لنفسه الحكم على الثقافة وتمييز نقيها من فاسدها إنما الفكر الإنسانى ينقد ذاته ، وننقى خبثه .. وقيام فكرة فى وجه فكرة أخرى .. هو الذى يميز طيب الثقافة من خبيثها .. وليس ثمة فكرة تستطيع أن تفرض نفسها على المستقبل ، وتهمجر عليه ، وتمنع ميلاد تفكير جديد ، وأيضاً من باب أولى ، ليس من حق السياسة ذلك .. وهى لا تملك قط تعقيم الفكر الإنسانى ولا تقدر على ذلك حتى حين تريد ..

قيل : إن الاسكندر زار ذات يوم الفيلسوف « ديوجينز » ، وسأله فى تواضع وأدب :

أليس لسيدى الفيلسوف ، ما يأمر به ، فيكون لى شرف تنفيذه .. ؟
وأجابه الفيلسوف الزاهد الكبير :

— نعم لى حاجة واحدة .. أن تتنحى بعيداً ، حتى لا تمحجب عنى

ضوء الشمس .. !!

— ١٣٠ —

لكن ، ليس الحظر الأخلاقى ، وليس الحظر السياسى ، هما وحدهما ، القوة التى تُناوىء الفكر وتتحدى الثقافة .. فهناك أيضاً — الحظر الاجتماعى ..

ونحن نعنى بالحظر الاجتماعى قوة التقاليد ، والتقليد .. إن للتقاليد ضرورتها وقيمتها ، فهى القوالب التى تعيش خلالها مراحل النمو والتطور للناس .. ولكن لها كذلك مثالها ومضارها .. وشرها ما فيها أنها تُغرى بالتقاليد السابى الذى يعطل قوى الخلق والابتكار ..

والثقافة تعنى — دائماً — التخطى والمجازة : وكل نقلة جديدة لها تتضمن خيراً فى سابقتها. فهى إذن لاتهدم التقاليد بتجديدها وابتكارها ، وإنما تحولها وتطورها :

إن كل طور جديد من أطوار الثقافة ، يبدأ بأن يتناقى خير ما قبله ، ثم يستوعبه وعضى به فى انطلاق جديد : وهذه العمالية الدائمة تمارسها الثقافة بوسائلها دون ما حاجة إلى تدخل منا أو من أية قوة خارجة عنها سوى قوة الإنسان التبدية فى حركة تاريخه :

وإذا نحن حاولنا أن نعرف :

لماذا باحت حقيقة الجاذبية بسرّها لإسحق نيوتن . ؟

لماذا تسكفت كروية الأرض وحركتها لكورنيكس وجاليليو . ؟

لماذا تبدت نظرية أصل الأنواع لدارون . ؟

— ١٣١ —

ولماذا بزغت فكرتها من قبل في وصي ابن مسكويه . ٢٢ .
لماذا تفتحت آفاق الفلسفة لابن باجه ، وابن رشد ، وابن سينا ،
والفارابي . ؟

لماذا نبغ جابر بن حيان في الكيمياء ، وكان من كبار روادها . ؟
لماذا أسلس علم الفلك قياده للبياتاني ، وأبي الوفاء البوزجاني ،
وهيد الرحمن بن يونس . ؟ ؟

سنرى وراء كل هذه المبقرات تفوقاً على التقاليد ، وعلى التقليد . .
فالمصور التي تجلّت فيها تلك المبقرات كانت محافظة في تفكيرها ،
وكانت ترى في هذه المحاولات ضرورياً معتسفة من التجديف والروق .
ولو أن أولئك الأفاذ وهنوا ، واستكانوا ، لما قدر لهم أن يؤدوا الأدوار
الكبرى التي أدوها :

بل ، لو أن المسيح نفسه ، وقف عند تقاليد قومه ومعتقداتهم دون
أن يتخطاها ..

ولو وقف الرسول عند تقاليد الذين يخرون للأصنام سُجّداً — لما
كانت المسيحية ، ولا كان الإسلام ..

فالثقافة — إذن — لكي تؤدي وظيفتها يجب أن تتحرر من كل
تبعية للتقاليد ، وهي بتحررها هذا لن تكون كالثور في متحف الخزف .
ولن تبث الألغام المهلكة في أرض التقاليد القائمة .. فبين الثقافة

— ١٣٢ —

والتقاليد روابط تاريخية ، تجعل كلا منهما يعطى الآخر ويأخذ منه ..
وإنما ستهدم الثقافة من التقاليد كل ما استنفد أغراض وجوده وبقائه ،
ويجب أن تمسكن من هذا لأنه من مقتضيات تطور الحياة الإنسانية كلها ..

حين تسيطر التقاليد على الثقافة تتحول — أعنى الثقافة — إلى
مجرد تقليد ، وترديد ، واجترار . وتأخذ طابعا محليا ضيقا عطنا ..
وتُفرز عفونات كثيرة أهونها التعصب العموم لها .. وعندئذ يصبح
« كبت الحقيقة » هو الفضيلة التي يثمرها الذكاء وتقتضيها المسيرة .

وإننا لنعلم أن شرَّ ألوان الاستبداد ، هو « استبداد الكلمة » ..
وإن بضع كلمات ، كانت تقول « الأرض مسطحة » ظلت تستعبد
البشر أحقاباً تلو أحقاب ، حتى إذا انشقت الصفوف المدعنة عن بضعة
أفذاذ أرادوا أن يجاوزوا الضباب إلى مطالع الضوء .. هبت التقاليد
في وجوههم باطشة فاتكة ، فسجنت ، وشنقت ، وأحرقت .

إن الثقافة من عمل الإنسان .. ولا بد لها من مجاوزة التقليد إلى
الابتكار ، والمحلية إلى الشمول . فذلك من صميم طبيعتها .

وحيث يوجد « إنسان » فتمّ وطنها .. فليس لها وطن خاص ،
ولا جنسية خاصة ..

فالثقافة الماركسية السائدة في روسيا وفي الصين وفي كثير من بقاع
الأرض — اكتشفها عقل ألماني ..

— ١٣٣ —

ونظريات ابن الهيثم في الضوء .. واكتشافات أبي بكر الرازي في
الطب والكيمياء .. ونظرات ابن رشد والفارابي وابن سينا في الفلسفة.
هي التي علّمت أوروبا ، ولا تزال تقتعد مكاناً جذرياً في ثقافة أوروبا
السامقة ..

كما أخذ علماء العرب وفلاسفتهم هؤلاء ، عن الثقافة اليونانية ،
التي تلقت هي الأخرى عن الثقافة المصرية .

فالمحلية والتقليد ، دخيلان على الثقافة ، وهي ترفضهما بقدر
ما تسمى إلى الانتشار والابتكار وحين تتأثر ثقافة بأخرى ، فهي في
الواقع لا تقلدها إلا إذا وقفت عندها ، وأخذتها بطريقة النقل الحرفي ،
وسفّ الصور .. وهذا شيء غير ممكن حتى لو أرادته الناس ..
لأن طبيعة الثقافة تقودها . وطبيعتها هي الاستيعاب ، والتحويل
والخلق ..

وكل ثقافة تتأثر بأخرى في هذه الحدود .. والإيمان بهذا ضروري
للناس كي يوفروا الجهود العدوانية التي ينفقونها عبثاً ضد الثقافة .

x x

إن الجهل بالمهية الثقافة يحمل على التمسب الذميم والخوف
الأهوج .. التمسب لثقافة مآ ، والخوف من ثقافة أخرى .

(٩)

— ١٣٤ —

كما أن ضراوة العبقرية ، وعبادة البطل ، حين يكون هذا البطل
مفكراً .. بعض نتائج هذا الجهل .. وهما يشكلان خطراً على الثقافة
جداً عظيماً

فنحن حين نؤمن بثقافة ما ، أو بعبقرية ما ، إيمان الموام — فإن هذا
الإيمان يدفعنا غالباً ، أو دائماً ، إلى الاستخفاف بما عدا هذه الثقافة .
وهذه العبقرية .

والذين تسترّفهم وتستعبدهم عبقرية فرد ، كثيراً ما يُحرمون
الانتفاع بعبقريات الذين يناهضونه .

وكما يحدث هذا للأفراد ، يحدث للأمم والجماعات ..

ولذا فإن مناصنا العظيم ، هو عبقرية الإنسان ..

وعبقرية الإنسان لا يملكها واحد ، ولا مائة ، ولا ألف ..
لا تملكها أمة .. ولا جيل .. ولا عصر .. إنما يملكها النوع كله ،
ومتجلى ظهورها جميع الزمان ، وجميع الناس ..

والثقافة ليست معرفة فحسب ، بل هي كذلك نفوذ ..

ونفوذنا يتسع بقدر ما يكون معنا من ثقافة . كما أن كل إهمالٍ
لثقافة ، وإعراض عن فكرة ، ومناهضة لمعرفة ، يعني نقصاً كبيراً في
نفوذنا .. !!

والثقافة تحرير ، لا استعباد . . . !

وهي بهذه المثابة تدعوننا لأن نتعلم من جميع المعلمين ، ثم نسير وحدنا دون أن نكون ظلالات للآخرين مجرد ظلالات ..

وهذا واجبتنا نحن بني الإنسان في كل زمان ، وفي كل مكان .. أن نتعلم من جميع المعلمين دون أن نقعد في غمار عظمتهم استقلالنا الفيكري ، ودون أن نتحول إلى إِمَّعات تائهة أو على حد تعبير « امرسون » (١)

« اشكروا الله على هؤلاء الرجال الأخيار »

« ولكن ، ليقبل كل منكم : أنا كذلك إنسان - »

هذا هو الامتياز العظيم الذي تقدمه الثقافة لنا ، وتُفِيئُهُ علينا . وإنها لتمنحه بقسطاس مسنقيم لجميع الذين يسعون إليه ويريدونه . . . جميع الذين يعلمون أن الحقيقة ليست ملكا لأحد ، ولا ملكا للجماعة ، ولا ملكا لعصر . . . جميع الذين يهربون من الرق . حتى حين يكون استرقاق الكلمة الصادقة نفسها .

وهذا الامتياز كذلك ، هو الحد الفاصل بين الثقافة والتعليم ..

إن التعليم يُؤهلنا . . أما الثقافة فتعلمن سيادتنا ، وتؤكد تفوقنا على كل عوامل التبعية والخضوع . .

وحين تتبجع جميع الذين اكتشفوا لنا قوانين الطبيعة ، وقوانين المجتمع ، وجميع الذين نقلونا من عصور الجهالة إلى عصور النور والعلم ،

(١) كتاب (مختارات من امرسون)

نجدهم جميعاً وبغير استثناء من المثقفين .: أعنى من الذين جاوزوا
التعلم إلى الثقافة . . جاوزوا الاطلاع إلى الانشاء والخلق . .
جاوزوا عبادة البطل الفكر إلى اكتشاف البطل في أنفسهم ،
وفي ذواتهم ومواهبهم . .

أجل لنشكر الله على جميع المعلمين والرواد ، واكن
لنفسح صفوفنا لآخرين وآخرين فإن معجزات الانسان لا تنتهي لها . .
إن شر ما نصنعه هو أن نحمل المفكرين على نبذ آرائهم لمجرد أنها
لا تتسق وآراء آخرين من الأطواد الشاخنة ، والبعقريات الفذة . .
أو لأنها لا تتفق والعرف السائد والمعرفة القائمة ، فكأى من أفكار
نبذها الناس ذات يوم وحاربوها وفتكوا بأصحابها . . ثم إذا بها تفرض
فيها بعد نفسها ، ويتبين العقل الإنساني أنها حقائق ، وقوانين ،
ومُسلّمات . .

ومن الذى أوتى الحكمة كلها . . ؟؟ لا أحد . . والذى يظن
أنه وعى جميع الحقيقة ، إنما يجهل الحقيقة جهلاً كبيراً .

ولقد عبّر عن هذا المعنى تمبيراً سديداً ، العالم الرياضى الكبير

— لاجرانج — حين جعل شعاره :

« لا أعرف » . . . 111

وأيضاً عبّر عنه العالم الرياضى « لينتز » حين قال (١) :

(١) كتاب « رجال الرياضة » .

- ۱۳۷ -

« لَدَى السَّكْثِيرِ مِنَ الْأَرَاءِ الَّتِي رُبَّمَا تُسَكُونُ ذَاتِ »
« فَائِدَةٌ يَوْمًا مَا ، هُنْدَمَا يُقْبِضُ اللَّهُ لَهَا آخِرِينَ مِنْ هَمِّ »
« أَذْكَى مِنِّي ؛ فَيَفْجَحُصُونَهَا فِخْصًا عَمِيقًا ، وَيَصِلُونَ جَمَالَ »
« مَقُولُهُمْ بِمَجْهُودَاتِ عَقْلِي . . . »
كَيْدًا كَثِيرًا « نِيوتن » فِي قَوْلِهِ الْمَأْثُورِ :

« إِذَا كُنْتَ قَدْ رَأَيْتَ أَبَدًا قَلِيلًا مِمَّا رَأَى الْآخَرُونَ ، »
« فَمَا لِهَذَا مِنْ سَبَبٍ إِلَّا أَنِّي كُنْتُ أَقْفَ عَلَى أَكْتَاْفِهِمْ ... »
وفوله الحكيم :

« لَا أَدْرِي كَيْفَ يَنْظُرُ إِلَى الْعَالَمِ ، وَلَكِنِّي أَتْرَأِي »
« لِنَفْسِي كَمَا لَوْ كُنْتُ غُلَامًا يَلْهُو عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ ، »
« وَأُسَلِّي نَفْسِي بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْحَيْنِ بِالْعَثُورِ عَلَى حِصَاةِ »
« أَكْثَرَ مَلَاَسَةِ ، أَوْ صَدْفَةِ أَكْثَرَ جَمَالًا ، بَيْنَمَا مَحِيطُ »
« الْحَقِيقَةِ الْعَظِيمِ يَمْتَدُّ أَمَامِي ، دُونَ أَنْ أَعْرِفَ عَنْهُ »
« شَيْئًا ... !! »

x x

فلتقل كل ثقافة كلمتها ، ولتخرج خبء تفكيرها ، ولتندع
بين العالمين فلسفتها وآراءها ... فليس على ظهر الأرض سلطة أعلى من
سلطة الفكر تستطيع أن تزعم لنفسها حق التحكم فيه وحق توجيهه -
والكلمة .. هي الفكر منطوقا ، أو مسطورا ..

وصدقت آية الإنجيل . . « في البدء كان الكلمة » ...
فالتأخذ الكلمة كل حقها في الذبوع والانطلاق . . وكل حقها
في أن تظل جليلة عزيزة ، فلا تُسَف في استعمالها ، ولا فتوسل بها
لتحريف الحق ، وتمجيد الكذب .
ولندع الثقافة حرة طليقة ، لإامن الضوابط التي تضعها هي لنفسها .
ونرحب بكل ثقافة تثير الذعر في نفوسنا ، لأنها دليل على أن
بهذه الأنفس خوفاً مُذلاً ، يجب أن يرحل . .
وبكل ثقافة تثير الشك في أنفسنا ، لأنها توقظ إرادة اليقين لدينا ،
وتزودها بالبصيرة والفهم . .
وبكل ثقافة تُسممنا حشرة الأتقاض التهاوية داخل تفكيرنا
المُدبر ، لأنها تبشر بميلاد جديد لوعينا ...
وبكل ثقافة تتحدّى أفكارنا وآراءنا ، لأنها ستكشف عن زيفها
إذا كانت زائفة ... أو تزيدنا إيماناً بها وإصراراً عليها إذا كانت صادقة ...
وكما جعلنا شعارنا نحن البشر — « ثقافة بغير قيود » .
وكما استمسيكنا بهذا الشعار ، ازداد نفوذنا في الحياة .
فلنصنع هذا ، صادقين .
ولنتق بالفكر الانساني العظيم ، ولنمض معه ، فإنه يتقدم بنا فوق
الخوف ، وفوق الظلام ...



التحذير والاختيار

هناك قصة تُروى ..

ربما تسكون قد وقعت بذاتها ، وربما لم تقع ، ولكن مفهوم
يتكرر في صور لا تُحصى ، ويُمثل مأزق البشرية كلها ..

استأجر أحد الناس رجلا شديداً القوي لقطع بعض الأشجار .
وعند الغروب ، دهش إذ وجده قد أنجز في يوم واحد ما كان يتطلب
أربعة أيام ..

وفي اليوم الثاني كلفه أن يصف الأخشاب ويُرصّها ، وأنجز الرجل
عمله هذا في وقت جدّ وجيز ..

وفي اليوم الثالث عهد إليه التاجر بكومة كبيرة من البطاطس ،
وكلفه أن يفرزها . وقال له : أما الفاسدة ، فانبذها . ثم ضع الجيدة
هنا .. والأقلّ جودة هناك ...

وفي آخر اليوم جاءه . ، وكم كانت دهشته حين ألقاه لم يُنجز من
العمل إلا أقلّه ..

وسأله : ماذا دهاك .. ولماذا هذا البطء الشديد .. ؟؟ فأجابه
الرجل : — « إن الصعوبة التي أجدّها في الاختيار والتمييز بينها ، تكاد
تقتلني » ... !!

إني لأذكر دوماً هذه القصة ، كلما تراءى لي سعي الناس
في الحياة .

— ١٤٢ —

وأذكرمها في نفس اللحظة ، ولنفس السبب ، كلمات الفاييسوف

« سانتايانا » :

« ليست الصعوبة الكبرى في الحياة أن تختار بين الخير »

« والشر .. بل أن تختار بين الخير ، والخير... »

هذه هي مأساتنا .. وفي نفس الوقت هي عظمتنا .

أجل ، وهذا مأزقنا العظيم . . . ١١

الاختيار بين الجيد والأجود ... بين الحسن ، والأحسن ، وليس يبدأ
مأزقنا من هنا ... من عملية الاختيار ذاتها . . بل يبدأ قبلا من
التحديد الذكي للأشياء ، تحديد الحسن ، والأحسن ، وتحديد
الردىء الذي سننبذه جانبا ...

التحديد ... والاختيار ... ؟؟

يا لها من كلمتين خفيفتين على اللسان ، ثقيلتين في الميزان .. ١١

فهما معراج الحياة البشرية كلها ... وبسبب منهما تمت جميع

خطواتنا الظاهرة إلى أمام .

× ×

ولكن كيف نحدد ، وكيف نختار . ؟؟

-- ١٤٣

لقد كان سبيلنا همد ، ولا يزال .. « الخبرة والتفكير » ...
والخبرة هنا ، لا تعني مجرد نزهة ممتعة ؛ إنما تعني السكوح والمماناة .
وكما يقول « جون ديوى » :^(١)

« لكي نختبر شيئاً ما ، فالذي يحدث أننا نُؤثر فيه ،
« ثم نتلقى نتائج فعلنا ، تأثيراً مماثلاً ينعكس علينا من
« الشيء ذاته .. »

أى أن الخبرة ليست مجرد مزاولة العمل ، بل هي معاناة العمل بكل
تجربته وخطئه .. ثم هي الألم ، أو الشوق الذي يرتبط كل منهما
بالتجربة ، ويظل مرتبطاً بذكرها ...

وهكذا ، فالخبرة في حقيقتها ليست مجرد اكتشاف شيء ما ، وإنما
هي اكتشاف أنفسنا داخل هذا الشيء ، واكتشاف روابطنا به ،
واكتشاف جميع العلاقات التي يعمل داخلها ذلك الشيء نفسه .

وهذا ، هو العمل الصعب للتفكير .. فالتفكير بدوره لا يعني
إدراك المجردات .. لا يعني إدراك الأشياء معزولة عن علاقاتها ... وإنما
يعني إدراك العلاقات وتمييزها .

يعني اكتشاف الروابط بين أعمامنا وعواقبها .. يعني الأحساس
بمشكاة .. ثم ملاحظتها بكل ما تنطوي عليه الملاحظة من شك وحيرة .

(١) كتاب « الديمقراطية والتربية »

— ١٤٤ —

ثم من حدس وتأويل . ، ثم من فحص وكشف وتحليل ..
ويعنى أخيراً — المعرفة .

• وعندما نعرف ، يتسنى لنا أن نحدد ، ونختار .. وهكذا تبدو المعرفة
ولها قيمة ثانوية لاغير ...

أما القيمة الأساسية حقاً ، فهي لعملية المعرفة نفسها ... هي لخبرتنا
المنطوية على التجربة والخطأ والماناة .. ذلك أن هذه العملية لا تثمر
المعرفة الصحيحة فحسب . ، بل وتثمرنا أنفسنا ، ونصهر كل ملكاتنا ،
ومواهبنا ... كما نواصل عن طريقها تنمية جوهرنا واستعدادنا .

فالناس الذين يتلقون « معارف جاهزة » ، ليسوا كالأخرين الذين
اكتشفوا هذه المعارف ، وعانوا خلقها .. والطفل الذي تعلم شفاهاً ، أن
التيار الكهربى يصعق ، لن يكون أكثر حذراً ، من الطفل الذى عانى
التجربة نفسها ، وكاد التيار ذات يوم يصعقه ...

وحين تنقل لوحة فنية بطريق « الشف » دون أن تعانى — على
الأفل — عملية رسمها ومحاكاتها ؛ فأنتك لاتكون قد أتيت أمراً مذكوراً ..

فالمعرفة الحقّة — إذن — هي أن تعانى تجربة هذه المعرفة ..

والاختيار الحق ، والحرية الحقّة ، هما أن تعانى تجربتهما ..

فبدون معاناة تجربة المعرفة — لا معرفة ...

وبدون معاناة تجربة الحرية — لا حرية ...

- ١٢٥ -

أى أن التجربة والخطأ بالنسبة لشيء ما ، هما سبيل وجوده ، وهما
من صميم جوهره وحقيقته ...

فالكمال المطلق في حياتنا البشر غير موجود - أما الوجود فعلاً ،
فهو الكمال الميسور .

والذين يريدون « معرفة » بغير خطأ ..

« وعدلا » بغير مَيْل . .

و « حرية » بغير إساءة . .

و « فضيلة » .. بغير نزوة .. جدُّ واهمين ...

وكما أن وجود الخطأ ، لا يبرر عدم « الفعل » فوجوده أيضاً ،
لا يبرر « سبب الحق » ... !

ومن حقوق الإنسان المقدسة ، أن يختار

ووقوع الخطأ في اختياره ، لا يمكن أن يسلبه حقه في الاختيار !

سواء . والخطأ من صميم تجربته . . والتجربة هي كل شيء في

تفكيره ، وفي مصيره ...

من هذه البديهية ، بدأ الحديث عن فيمة « الاختيار » في حياة الانسان

ونحن لانعرض الاختيار ذلك العرض الفلسفي النظرى ، الذى يبحث

ويسأل : هل الانسان مُجبر ، أم مختار . . ؟ كلا ... ليس هذا موضوع

حديثنا بحال ...

— ١٤٦ —

إنما تتحدث عن الاختيار ، كضرورة إنسانية . وحقيقة تاريخية
مارست عملها ونجم عنها كل مافي حياة الانسان من تقهقر وارتقاء ...

* * *

الانسان الذي قلنا أنه بدأ حياته كإنسان ، وهو مُزَوَّد بتصورات
هائلة ، ومنطوق على تجارب مبهمة لامتهدى لها ... والذي صادف في حياته
الانسانية حشوداً متساوقة متتابة من الأحداث والتجارب ... ليس
أصعب عليه من أن يختار ...

ولكأن أقداره حين ناطت حياته بالاختيار ... وحين أحاطت
الاختيار بكل هذه الصعوبة ، وتلك المعاناة ... قد أرادت أن تشعره ،
وتملأ روعه بأن الحياة جد لا هزل . وأنها ليست منتدى . يحتسى اللهو
سُمَّارُه ... إنما هي عمل دائم لا يقر قرارُه ...

إن بطل القصة السالفة التي بدأنا بها حديثنا هذا ، يمثل موقفنا جميعاً
من الاختيار ...

فلقد كان الرجل أيداً ، عارم القوة . شديد الغلب ... يقتلع الأشجار ،
ويرص كتل الخشب ، وكان العمل الشاق بين يديه دُمِيَّة يتلهمى
بها ويتسلى ... لكنه لم يكد يجلس إلى « كومة » البطاطس ، حتى
ضعف وبان عجزه .

— ١٤٧ —

لم تصرعه « حبات »... البطاطس الضعيفة الرخوة... وإعنا أضياء
وبلبل خاطره ، عجزه عن التمييز بينها . ولقد كان ذكيا حسيفاً ذلك
الشاعر الذي قال :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الجهالة ينعم
غير أن هذه الشقوة بالمقل ، من أجل مزايا الإنسان وأعظم فرص
قدمه وسمادته .

والانسان لم يكتشف نفسه تماماً ، إلا حين واجه هذا المأزق العظيم
في حياته ... حين سمع نداء بارئته للتعامل بجلجل في أعماقه : أن تقدم .
لقد منحتك كل أسباب التفوق . فأرني الآن ، كيف تصنع ...

× ×

والاختيار في مدلوله العميم ، يتمثل في موقف واحد ، هو اختيار
الانسان مصيره

ولقد اختار الانسان مصيره فملا ، ويتاخص في هذه الكلمات

- أن يسود أرضه ...
- أن يسود ماله ...
- أن يسود نفسه ..

هذا هو المصير الذي اختاره الانسان وشدّ إليه الرحال
والسيادة هنا ، لاتعنى سوى التفوق المستمر
ولقد رأينا كيف ساد الأرض فعلا وجعلها وطننا مناسبا وعظياله ..
ورأينا كيف ساد عالمه بكل علاقاته الطبيعية والبشرية ...
وإنما يأخذنا الشك في أنه ساد نفسه ...
بيدَ أَنَّهُ مِنْ الْإِنصَافِ لِلْإِنسَانِ ، أن نعرف له بالسيادة على نفسه
أيضا . ولن يُعجزنا التماسُ مظاهر هذه السيادة عبرَ تاريخه وتطوره ..
ونحن في حقيقة أمرنا ، لانستريب في تفوقنا الروحي هذا ، إلا
بدافع الإدراك السديد لقيمة هذا التفوق ، وإلا بدافع الرغبة النبيلة في
الظفر بالمزيد منه .

هذه السيادة إذن . . سيادة الإنسان عالمه ، وأرضه ، ونفسه ، هي
الغرض الذي يتمثل فيه مصيره الذي اختاره ..
- وثورات العلم ضد الجمود والعجز ، وثورات الشعوب ضد الملوك
المستبدين ، لم تكن تعنى إلا أن الإنسان يمارس اختياره وأن البشرية
تقرر مصيرها

صحيح أنه مرَّ ق من صفوف البشرية من قاوموا بجيوشهم وأساطيلهم
حق تقرير المصير لكثير من الأمم المسالمة ، والشعوب الوديمة المنادية بحقها
لكنّ تشبث الإنسان بحقه في اختيار مصيره الحرّ . ، وتشبثه
ببلوغ هذا المصير ، كان - ولا يزال - يدفع قوى الشرّ أمامه كالكرة .

-- ١٤٩ --

وكانت السكتل البشرية - ولا زال - تثبت أنها ، على حد نعبرجيفرسون ،
« لم تولد بسروج على ظهورها » . وهكذا رأينا ، ونرى ، كيف تحقق
الإنسانية كل يوم انتصارا عظيما يقترب بها من مصارها العظيمة
الواعدة ..

كان - غاندى - ، وهو يطوف قرى الهند ليجمع الناس حول دعوته ،
وليشير فيهم الإصرار الوديع على نيل حقهم ، وأخذ حريتهم - يقول لهم :
« لم يستول الانجليز على الهند فنحن الذين أعطيناهم إياها »
« وسنحصل على الاستقلال ، عندما نتعلم كيف نحكم »
« أنفسنا . ، إذن فالأمر لنا »

الأمر لنا ...

هذه العبارة الموجزة كل الإيجاز ، هي الطاقة الهائلة التي انتصر بها
غاندى ، وانتصرت بها أمته ..

أجل ، هي ، لا مجرد أنها عبارة .. بل بوصفها عقيدة آمن بها
غاندى ، وعلم شعبه أن يؤمن بها ..

إنها مثل القوى السحرية المخبوءة في التحديد والاختيار ، حين
يتضمنان إرادة تنفيذها ..

وهذه العبارة نفسها ، « الأمر لنا » .. هي القوة النافذة التي
سار بها الإنسان مخترقا الحواجز متخطيا العقبات . .

(٩)

— ١٥٠ —

لم يكن الإنسان يلو كها بلسانه ، ولا يخطها بينانه ثم يتمطى وينام .
بل كان يمارسها ، ويعيشها ، ويجياها ..

وإن أروع آيات الإنسان حقاً هي أنه عاش دائماً هذا المبدأ « الأمر لنا » .
وهو لم يعيشه متبذخاً به ولا مُتأهياً ، بل جاداً ، مغانياً ، مكابداً ..

فلكي يكون الأمر له يجب أن يستمتع بأهلية راشدة تمكنه من
حيازة الأمور . وهذه الأهلية لا تباع فيشتريها ، ولا تُدرك بالحفظ
النائمة . وإنما بشحذ كل ما آتاه الله من موهبة وقدرة ، ولقد فعل .
وعن طريق التجربة .. والتجربة وحدها .. مضى يُباشِرُ جهده
النيل الجليل ، بانياً نفسه ، مكتشفاً دوره ، مختاراً مصيره .

ومذ كان يسكن الغابة والكوخ ، إلى اليوم الذي أطلق فيه
سوارينه نحو الكواكب العُلى ، تُنبئها بقرب قدومه ...

من ذلك اليوم البعيد مُنتهى البعد ، حتى أيامه التي يعيشها الآن
وهو يُجابهُ بعزمه الجسور مشكلات ضخمة تناوئه ، وتريد أن تدحض
حقه ، وتقف مسيره ولكن إيمانه بأن الأمر له ، كان يُفرغ في ذكائه
من التوفيق ، وفي يديه من القوة ما يجعل الصعب سهلاً ، والخطر متعة ،
والمستحيل ممكناً ..

ولقد حدق الإنسان هذا الدرس ، وأجاد حمل تبعاته ..

-- ١٥١ --

وأكثر أبناء جسده ونوعه تفوقا في الحياة هم - دائما - الذين حذقوا معه ذلك الدرس العظيم ..

هم الذين يتواصون بالحق المشترك بينهم ، مؤمنين بأن الأمر لهم ، وبأن المسئولية مسئوليتهم ، وبأن المصير مصيرهم ..

هم الذين يقدرّون على أن يُحدّثوا .. وعلى أن يختاروا .. وعلى أن يعضوا ، وينجزوا .

ونفس الطريق الذي سلكه الانسان لينشئ « مشيئته المختارة » ، هو الذي لا معدل عنه لكل جماعة إنسانية تريد اللحاق بموكب الانسان أعني الخبرة .. ، والفكير ..

أعني معاناة التجربة معاناة كاملة .. وإدراك مدلولها إدراكا سادقا .. واختيار الموقف الذي توحى به التجربة والإدراك .

وفي تقرير المصائر البشرية جميعها - السياسية ، والعلمية ، والاجتماعية ، يجب أو ينبغي أن يكون هذا هو السبيل ..

x x

ويجب ، أو ينبغي ألا يكون الخطأ سبباً في التخلى عن التبعة بحال ..
وما دمتنا - نحن البشر - نختار حياتنا ، ونختار مصيرنا ،

— ١٥٤ —

فلا بد أن تكون مادة الاختيار بين أيدينا . ، وأن يكون معنا من-
الطمأنينة القدر ، الذي يسمح لنا بالتصرف وبالمنافسة .

أى لا بد أن نعرف كل شيء عن حياتنا ، وكل نسي . عن
مصيرنا .

وحياتنا ، هي عاداتنا ، وعقائدنا ، ومؤسساتنا

هي تجاربنا ، وكفاحنا ..

هي آلامنا ، وآمالنا ..

هي أهوؤنا ، وجدُّنا ..

وبعبارة واحدة ، هي كل ضروب نشاطنا الإنساني .

ومصيرنا ، هو الطريق القويم الذي تتحقق عليه أغراض
وجودنا .

فاكي ننظم هذه الحياة ، التي هي حياتنا .

ولكى نستقبل ذلك المصير ، الذي هو مصيرنا ، ينبغي أن يوضع
كل شيء يتعلق بهما بين أيدينا ، وتحت أعيننا ، وتفكيرنا ، واختيارنا
إن حرية الاختيار تمثل اليوم في حياة البشر « مركز التنفس »
— ولئن كانت كذلك في كل وقت ، إلا أنها اليوم أكثر ، وأخطر .
فقدما ، كان اختيار جماعة ما ، أو أمة ما ، يؤثّر في حياتها أولا ،
وبالذات .. ثم لا ينتقل هذا الأثر إلى المجتمعات الأخرى النائية إلا

-- ١٥٣ --

بعد زمن طويل يتمصيه بعد الشقة ، وندرة وسائل الاتصال .. وتعبير
هذه الرحلة الشاقة الطويلة ، يكون الأثر قد تقطعت أنفاسه ، وتبددت
وطأته ..

أما اليوم ، فأثار التفكير والاختيار تنتقل بسرعة الضوء ، مع
وسائل شتى قهرت الأبعاد والمسافات ..

أجل ، تنتقل مع المذيع ، والسيما ، والصحافة ، والكتاب
وحين يختار شعب « رقصة » معينة لنفسه ، نبصر هذه الرقصة
ذاتها ، وبعد بضعة أيام من اختراعها واختيارها ، تملأ أركان الأرض
وتتلوى بها أجسام الملايين في معظم البلاد والشعوب .. !

فالاختيار في عصرنا هذا لم يمد محليا . بل هو عالمي واسع
النطاق — ومن أجل هذا تعظم تبعاته ، وتكبر مسئولياته ..

إنه يفرض على الناس في كل الأرض . أن يفكروا طويلا قبل
أن يختاروا . وأن يعلموا أنهم لا يختارون لأنفسهم وحدها ، ولا
بأنفسهم وحدها .. وإنما يختارون للعالم كله ، ويختارون أيضا بتأثير
من مزاج العالم كله . وهذا يقتضى أن يكونوا وهم يختارون ، على أكبر
حظ من الوعي ومن القدرة على الاختيار .

وكل شعب من شعوب كوكبنا هذا ، مدعو لمعانة تجربة
التحديد والاختيار ، مهما تكن تكاليفها . ومشقاتها . وإلا وَّضَع
نفسه مختارا تحت الوصاية .. وسبب البشرية كلها نقصاً في نفوذها —

— ١٥٤ —

ذلك أن النفوذ الإنساني هو ثمرة الإرادة الإنسانية .. والإرادة
الإنسانية تشكلها إرادات الرُّشد التاريخي والجماعي لكل أمم الأرض
وشعوب الإنسان .

واختيار كل أمة لنفسها ، لن يعني التفسُّخ ، والتشتت ، والفرقة
بين أبناء طائفة الواحد . فالتطور الإنساني يمي نسه تماما . ونحن إذ
نمضي في مساره ، إنما نستهدى بوعيه ، وبتأثر به ، ويناديننا بحاله
المغناطيسي ، فقلبي نداءه ..

وكما اتسع تطورنا هذا لمزيد من الوعي ، ومن الفكر ، ومن
الثقافة — كثرت نقاط الالتقاء والتجمع بين الجماعات الإنسانية كلها .
ويتم التجمع بين جماعات قوية واعية ناهضة ، حين تكون جميعا قد
مرّت بتجربة الاختيار ، وكوّنت لنفسها تلك الشخصية الحرة
المستقلة النامية التي يثمرها الاختيار .

وهكذا يتجلى ظهور الإنسان فينا على نسق باهر عظيم

x x

وكما نادينا في الفصل السالف بمبدأ « الثقافة للكافة » ننادي هنا
بمبدأ « الاختيار للكافة » ..

لقد قلنا : إن عصر « الثقافة للصفوة » قد انتهى .. أو بدأ
ننتهي ، وعالينا أن نُجَلَّ بنهايته ..

ونقول : إن عصر « الاختيار للصفوة » يواجه نفس المصير ،
وينبغي أن يواجهه .

والكناس ، كالفياسوف في الميزان . . .

ولا ينبغي أن نعطي عبقرية حق الاختيار ، ثم نحرم أباه الذي كان
خطابا ، أو نجارا ، أو من غمار الناس . . فهذا الأب العمور ، هو الذي
حمل في صُلبه ولده المبقرى أو العظيم ، وهو الذي أوصل إليه ميراث
العبقرية ، ومنحه وجوده .

ثم إن الاختيار ، ليس عملا من أعمال الترف والصِّلف حتى يكون
وقفاً على الخاصة . بل إن له وظيفة أسمى وأجلّ ، ووظيفته هذه تجمل
أمر تعميمه واجبا مفروضا . فوظيفة الاختيار الحقّة هي :

أولا : ترشيد الوعي الإنساني .

ثانياً : الكشف عن الإرادة الكلية للجماعة الإنسانية .

لنفرض أننا دعونا سكان الكرة الأرضية جميعاً للاشتراك في
استفتاء حر ، تبين عن طريقه رأيهم في الحرب وفي السلام . . .

ولنفرض أنهم جميعاً ، أو معظمهم رحّبوا بالحرب ، ورأوا فيها علاجا
لآلام الحرب الباردة ، وحرب الأعصاب القائمة . . .

إن هذا الرأي - لأريب - فاجمة وبيلة . لكن الكشف عنه
عمل عظيم . . . !!

فهذا الكشف دلنا على « إرادة كلية » للناس لم يكونوا يعلمونها . .
وهذه « الإرادة الكلية » تشكل خطراً داهياً . . وهي وإن تك يوماً
في حالة كمن ، فإنها في يوم آخر ستملن عن نفسها لا محالة . .
وإذن فمن الخير العظيم أن نعرفها ، ونكتشفها ونتبع مآثها ،
ونلوي زمامها . .

والأرادة الكلية حين تتكشف وتبدئ ، نأمن عثارها مهما
يكن الخطأ الكامن فيها ، لأن وُجوه الرأي السديد سرعان ما تجند
نفسها لتقويم العوج ، وإحكام الاتجاه .

والوعي الإنساني لا يفقد أبداً ، من يضع أصبعه على مصباح
الحقيقة فيضيئه له ، حتى لو يكون طفل . « هانس أندرسون » الذي
كشف عُرى الامبراطور ، وفضح « نساجي صاحب الجلالة »
ورد للجُموع الجبانة المخدوعة شجاعته وعقلها ، حين صاح بينها :
« إن الامبراطور عُريان » . . فإذا الناس يُقبل بعضهم على بعض
يتهامسون ، ثم يتصايحون : « أجل . . إنه عُريان . . إنه لعُريان » . . !!

وإذا كان تبين الإرادة الكلية للناس حتمياً ، حتى حين تمثل هذه
الإرادة خطأً وخطأً ، فكم تكون حتميته ، والإرادة الكلية خير عميم . ؟!

— ١٥٧ —

أجل ، إن الارادة السكلية للبشر لا تجتمع على ضلالة ، لأنها اجماع
ما في البشرية من ذكاء ، ووعي ، ورغبة في التفوق ، وإصرار على
النهوض . . . ونحن في الحقيقة لسنا بكثير حاجة إلى تبين وجهتها
ومقصدتها ، فوجهتها معروفة بالبديهية وهي المِجَاوِزَةُ الدائمة ، وتخطي
الحسن إلى الأحسن باستمرار . . .

لكن ما نحن بحاجة إلى تبينه دائماً ، هو الطريق ، والوسائل التي
تتوسل بها هذه الارادة لبوغ وجهتها ، وتحقيق غرضها .
فالوسيلة مرنة ومتغيرة . ولكل عصر وسائله المناسبة ، ونظمه
ومناهجه ، ومؤسّساته الملائمة . . .

وهنا المجال الحيوي الفسيح للاختيار .

وهنا كذلك المجال الحقيقي لإرادة الإنسان .

x x

كان القديس « أوغسطين » حين يُسأل عن سرّ الزمان يجيب :
« إني أعرف الزمان ، إذا لم يسألني عنه أحد . . . »
« أما حين أحاول تفسيره للساائل فأني أجهله . . . »

— ١٥٨ —

ولقد بقي الاختيار كمشكلة فلسفية ؛ يتخذ في الأذهان صورة كصورة
الزمان في ذهن أوغسطين . .

حدث هذا ، ولا يزال يحدث عندما نناقش « الاختيار » من
حيث صلته بالقضاء والقدر . .

أما حين نظرته - كما قلنا من قبل - باعتباره ضرورة إنسانية
عليها أن تحقق نفسها في العالم الخارجي ، وباعتباره حقيقة تاريخية
تتبدى سافرة واضحة في الحركة الإنسانية كلها ، صغيرها وكبيرها ؛
فحينئذ يكون موقفنا الفكري منه واضحا ، ولا نجهد من حقيقته ،
ولامن دوره شيئا . .

إن قصة الحياة الإنسانية كلها ، هي قصة الاختيار الإنساني ،
في حريته الخالقة . .



وبعد...

. الآن يبلغ الكتاب تمامه ، وتشرف هذه الصفحات على غايتها .

فهل فرغ حديثي عن الإنسان ؟ ؟

إذا كان تصوّري لعظمته ، ولستقبله ، سيُصرُّ على أن ينقل
نفسه ، ويُعبّر عنها في صحائف مكتوبة ، فما أكثر ما أحتاج - إذن -
إلى كُتب تروى هذا التصور الغدق المفيض ..

على أني سعيد بنعمة الله عليّ في هذه العجالة التي ضمّنتها علاقتي
بالإنسان ..

ولسوف أظل أذكر لهذا الذي أنبته الله من الأرض نباتاً ،
ثم سوّده عليها ، واستخافه فيها .. سوف أظلّ أذكر له كدحه ،
وشقاه ، وأخطاه ، أكثر مما أذكر له فوزه ، ومباهجه ، وذكاه .

أي أنه من حيث يشاءم كثيرون ، وينفضون عن الإنسان في
جزع أليم ، سأشر أنا شرّاع تفاؤلي ، وأقبل على الإنسان في نقّة
سابقة ، وى ولا . كرّم !! .

دلك أني - فيما أحسب - قد عرفت ما هو .. وأدركت من
فداحة عبئه ، وثقل حمّاه ، وحسامة مسماه ، وعظمة دوره ما منحني
اليقين المدبّ بببل خطابه ، وجلال مراياه ، ويمن أبامه ، وتجد زمانه .
وأحسب أن هذا واحمنا جميعاً نحو الإنسان ، أفراداً ، وجماعات ،
وأما ..

ينبغي أن نتق بالإنسان ، ونطمئن إلى مصيره ، وينبغي أن يكون
جهادنا - دائماً - مرتبطاً بجهاده ومتمماً له . وأن نتحرى مشيئته
ونعمل وفقها .

لقد قرأنا كثيراً عن تاريخ الإنسان . ووقفنا عنده ملوياً
أفينبغي لهذه الوقفة أن تدوم . ؟ ؟
كلا ، وإنما واجبنا أن نتقدم لنسهم في بناء هذا التاريخ بعزيمة
أقوى ، وثقة أتم ، وولاء أكثر .
وذلك يقتضى أن بأخذ كل مكانه بين الصفوف الزاحفة ..
ويدفع كل كيانه الصغير داخل الكيان الكبير ..
علينا أن ننقل الإنسان إلى حياتنا ، ونملأها برؤاه وياصراره ..
وعلينا أن نعمل من أجل مستقبله ومصيره ، وكأننا نبصر هذا
المستقبل وذاك المصير .
وبقدر ما تحمل عزائنا من تفاؤل ، سيكون جمال كفاحنا ،
وستكون عظمته .
لنتق تماماً ، أن هذه الأرض لن تشهد يوماً ما ، جنازة الإنسان ..
فالإنسان الذي قضى ملايين السنين في أحضان التطور لكي يبلغ
الرشد الذي يبدأ منه رحلته الجادة الصاعدة ، لن يقضى نحبه حين

- ١٦٣ -

تدق ساعة رُشده وتبدأ بشارٌ عصوره .. ولقد دقت الساعة ،
وأهلت البشار ..

ولو لم يبق من البشر سوى ألف أو مائة ، فسيعمل الإنسان داخل
هذا الألف ، أو هذه المائة ..

وإذا لم يبق من نوعه إلا عشرة ، فسيعمل مع هذه العشرة ..

وإذا لم يبق إلا واحد ، فسيبدأ بناء عالمه الجديد بهذا الواحد ..

وإذا فنى هذا الواحد أيضاً ، فسيكمن الإنسان داخل « أميبا »

يهرب بها من الفناء ، ويبعث من داخلها نفسه مرة أخرى ، وينشر
وجوده وحياته ورسالته من جديد .

لتؤمن بهذا جيداً ..

ولنشق بأن خليفة الله هذا ، سيبلغ من أمره ما يريد .



يَنْبَغِي
جِهَادَنَا -
وَنَعْمَلُ وَقْتَهُ
لَقَدْ فَر
أَفِينُغُر
كَلَا
أَقْوَى ، وَ
وَذَلِكَ
وَيَدَا
عَلَيْنَا
هـ مـ

طابع دار الكتاب العربي بيروت
مكتبة مصنفات طلبة جامعة بيروت العربية

المؤلف

- ١ - من هنا .. تبدأ
- ٢ - مواطنون .. لا رعاء
- ٣ - الديمقراطية .. ابتداء
- ٤ - الدين في خدمة الشعب
- ٥ - هنا .. أو الطوفان
- ٦ - لكي لانجرونوا في البحر
- ٧ - لله والحرية (جزء اول)
- ٨ - لله والحرية (جزء ثان)
- ٩ - ما على الطريق - محمد والسيح

يطلب في العراق من :

مكتبته المتنبي ببغداد

قرنسا مصر	١٢٠	} الثمن
سوريا	١٢٠	
لبنان	١٢٠	

مطابع دار الكتاب العربي بالعراق



To: www.al-mostafa.com